

## صورة الآخر في كتاب البخلاء للجاحظ دراسة في ضوء النقد الثقافي-

م. م. غني فخري الشريفي  
د. علي محمد ياسين

### مستخلص البحث

خاض الجاحظ غمار تجربة فكرية وحياتية كبيرة في بيئته انفتحت على ثقافات متنوعة وأجناس بشرية مختلفة تاركاً لنا آثاراً علمية وأدبية تدل على غزارة تلك التجربة وغناها، ولقد تجلّت في مواضع عديدة من آثاره تلك نزعة عرقية واضحة كان من أسباب نشوئها محاولة أديب البصرة إعادة كفة الموازين التي قلبتها الحركة الشعوبية ذات النزعة العرقية - كذلك- لصالحها على حساب العرب أصحاب الحضارة الغالبة في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

تمثلّت نزعة الجاحظ من خلال مجموعة الصور الإكراهية التي رسمها لآخر - الفارسي تحديداً - محاولاً تجسيمه بصورة نمطية واحدة تتمحور حول البخل لغرض إخراج هذا الآخر إلى دائرة المخالفة والمغايرة، ولقد جاء كتاب البخلاء - ذلك الكتاب الذي لم يكن ليرى النور في أدبنا العربي بكلّ هذا التبكيّر لو لا لحظة الاصطدام بالآخر الفارسي - مترعاً بتلك الصور التي تؤكد أن الجاحظ على وعيٍ تام بما يرسم وعيه قبل أنامله.

### Abstracts

Al gahiz went through rich experiments in amulti – cultural environment with multi – ethenic groups . he co mpied many literary works . there is apparent ethenic trend in his works which was areaction to ethenic Persian movment that tried to underestim – ate and belittle the areb.

Al gahiz in the collection causing contempt in his book (AL Bukhalaa) pertained this behaviour to the Persians because of the enmity factors, this book spread and appeared right in literature .

## المقدمة

على الرغم من محاولة الإسلام الحثيثة للتوحد بين مسلمي العرب، أصحاب الدعوة الأوائل، وبين غيرهم من مسلمي الأمم الأخرى، ورغم سعيه لصهر هذه الأجناس والأعراق في بوتقة واحدة من خلال الدعوة إلى خلخلة مفاهيم الأنماط والآخر، ذات الطابع العنصري الضيق، إلا أنَّ هذه الثانية ظلت مائلة في الحياة الاجتماعية والفكرية في المجتمع الإسلامي بسبب من طبيعة الذات البشرية المائلة للمغایرة والاختلاف والتباين وتعدد وجهات النظر وإعلاء شأن الذات على حساب الآخر المختلف والمغاير.

ونستطيع أن نستجلي كثيراً من مظاهر هذه الثانية في أدبنا العربي، وفي تاريخنا الإسلامي ابتداءً من زمن ذلك الاختلاط وحتى يومنا هذا.

إن هذه الثانية واضحة لمن يتلمسها عبر مجموعة كتب الجاحظ الخالدة التي استطاع من خلالها أن يضع بصمة خاصة في تاريخنا الإثنربولوجي تجسدت من خلال محاولته الدائبة في إعلاء شأن الذات العربية بوصفها ذاتاً فطرت على مواهب عقلية جمّة تمثلت بمستويات البلاغة العالية والبيان المتفرد الذي لا مثيل له في بلاغات وتراث الأمم الأخرى، وإن بلغت شوطاً كبيراً من التحضر والعمaran، وقد فُطرت هذه الذات في الوقت نفسه على مواهب خلقية تمثلت بالمرودة والكرم والصفات النبيلة التي كانت صفات نابعة من طبائع مركوزة في النفس العربية التي اكتسبت هذه الصفات من بيئه خاصة حبها الله، فانماز العرب تبعاً لذلك عن أمم أخرى كالفرس والروم والهند وغيرهم.

وما دعانا إلى دراسة صورة الآخر عند الجاحظ هو محاولة الكشف عن جانب من جوانب هذه الصورة التي تحملها النخب العربية المفكرة عن طبيعة الآخر (المغاير) في العصور الإسلامية الأولى، دون أن تتبنى هذه الدراسة أيَّ مقصود ذي نزعة عرقية قد تستدرج حياد الباحث، وهو حياد يجب أن يكون إلزامياً في مثل هذه الدراسات، ليقوم الدارس بدوره في عملية تحليل مضمون النصوص تحليلاً موضوعياً علمياً، وهذا ما حاولنا التقييد به.

لقد اقتضت طبيعة البحث أن يشتمل على مجموعة مباحث حاولت أن ترصد طبيعة صورة الآخر في أدب الجاحظ، أخذتين بنظر الاعتبار دلالة المصطلح، ومفهوم الآخر عند الجاحظ، وتمظهرات الأنماط والآخر في كتاب البخلاء، فضلاً عن تحليل مضمون نماذج شخصية وواقع وأحداث، وجذنا فيها دلالات وإشارات معبرة، وقد انتهى البحث بخاتمة توجز ما توصلت إليه الدراسة من مقصود كان الله من ورائه ومن أمامه أبداً.

### المبحث الأول – في دلالة مصطلح الآخر

ظهر مفهوم الآخر في الدراسات الأدبية والنفسية والثقافية مع ظهور الدراسات التي تتخذ من المجتمعات الأخرى المختلفة والمغايرة ميداناً للدرس القراءة والتحليل كالدراسات الاستشرافية

التي جعلت من الشرق مادة لها ابتداءً من حملة نابليون على مصر وما تلاها من غزوات واحتلال للبلدان المشرقة، واستمرت هذه الدراسات وتطورت متخذةً أشكالاً واتجاهات عديدة. وإذا كان مفهوم الآخر حديث الظهور إلى حدٍ ما، فهذا لا ينفي وجود الشعور بالغريبة والاختلاف في تاريخ حياة الشعوب وفي الآداب الإنسانية القديمة.

ولمعرفة مفهوم الآخر لابد لنا من معرفة مفهوم الآنا أو الذات وتحديد مدلولها (إحساسنا بالآخرية للأشياء والناس ينبع من إحساس الفرد بالأنا أو من منظور الشخص المتكلم للعالم)<sup>(١)</sup>، ويشير مفهوم الذات عادة (للدلالة على الشخصية أو الآنا حيث يجري اعتبارها بمثابة عامل يعي هويته المستمرة)<sup>(٢)</sup>، وهذه الذات لا تتحقق إلا من خلال وعيها لنفسها أولاً، ومن خلال تواصلنا وتعاملنا وتفاعلنا المشترك مع الآخرين على اختلاف مشاربهم بعد ذلك، فالشعور بالآنا لا يبرز إلا من خلال تلازم الذات مع الآخر حيث يُبرز هذا التلازم حدود الذات الفردية ويوصفها، وكذلك الحال بالنسبة للذات الجماعية الـ (نحن) فهي تتحقق وتتضح عن طريق القبيلة أو المجتمع أو الأمة، وبذلك تتحول الذات من إطارها الفردي إلى إطار الجماعة التي هي تشکل من مجموعة ذوات - أفراد - يشعرون بالتألف والتآزر فيما بينهم كما يشعرون بالاختلاف والافتراق والتبان عن جماعات أخرى لا ينتمون إليها<sup>(٣)</sup>. وعليه فإنّ وعي الفرد بذاته سيقود حتماً إلى وعي الفرد بالجماعة التي ينتمي لها، ووعي الجماعة بذاتها سينتّج عنه إدراك الجماعات الأخرى، ولابد من الإشارة إلى أن صورة الذات هي مرآة لصورة الآخر، والعكس صحيح، فلا وجود لـ (الآنا) دون الآخر، وإنّ الذات أو (الآنا) هي مركز شخصيتنا، وإنّها لا تفصح عن قدراتها إلا من خلال البيئة الاجتماعية، وإنّ شعورنا بذواتنا لا يبرز إلا وهو مصحوب بذوات الآخرين، وكأنّ الذات الآخر قد ولدا معاً<sup>(٤)</sup>.

أما بالنسبة لدلالة المصطلح في الحقل الثقافي فتشير إلى (أنَّ الآخر في أكثر معانيه شيوعاً يعني شخصاً آخر أو مجموعة معايرة من البشر ذات هوية محددة وبالمقارنة مع ذلك الشخص أو المجموعة أستطيع (أو نستطيع) تحديد اختلافه (أو اختلافنا) عنها، وفي مثل هذه الصدّية ينطوي هذا التحديد على التقليل من قيمة الآخر وإعلاء قيمة الذات أو الهوية<sup>(٧)</sup>

ولا يعني هذا أنَّ الآخر منفصل عنَّا له عالمه الخاص الذي لا يمت بصلةٍ إلى عالمنا، بل العكس من ذلك، لأنَّ الآخر (حقيقة موجودة في داخل كُلِّ منا، لا توجد ذات ساذجة)، لا توجد ذات صِرفة، لا توجد ذات هي حصيلة إثنيتها الخالصة، بل تتسرَّب في ذات كُلِّ منا ذواتٍ أخرى، ذاتات من كُلِّ لون وكلِّ اتجاه، وقد يتعرَّض هذا الآخر في ذاتنا، وقد يتناص مع ذاتنا، وقد يختمر على شكل بذرة مضادة، فالصراع يستوجب طرفين على أقلِّ تقدير، والأنا ليست مجرد كيان تتعاطف مكوِّناته مع نفسها على نحو التطابق الدقيق، بل هناك الصراع الداخلي<sup>(٨)</sup>.

ونستنتج من هذه النبذة المختصرة أنَّ علاقَةَ الذَّاتِ بِالْآخِرِ هي علاقَةٌ تبادلٌ لِلتَّأثِيرِ والتأثيرِ المتنوّعِ الأُسْكَالِ مثلاً هي علاقَةٌ نفيٌ وإقصاءٌ، وبغضُّ النظرِ عن طبيعةِ هذا التبادلِ المشتركِ سلبياً كان أم إيجابياً، فهي ضرورةٌ اقتصنتها آليةُ التعايشِ البشريِّ التي أفرزتَ هذه العلاقة. وربما جازَ لنا القول إنَّ هذه العلاقة قد تتسعُ دائِرَتها أحياناً بحسب درجة اتساعِ الدائرةِ التي تدرج تحتها الجماعاتُ، والعكسُ صحيح، فعلاقتنا بوصفنا مسلمين - مثلاً - باليهودِ والنصارى هي علاقَةٌ ثانويةٌ، أي علاقَةٌ آنا باخِر، ولكن هذه العلاقة قد تبدو أخفَّ وطأةً لو أدرجنا أصحابَ الدياناتِ الثلاث تحت مفهومِ إنساني شامل ينظرُ للخلقِ جميعاً على أنهم (عيال الله) عملاً بالحديثِ النبوِيِّ

الشريف\*، أما لو تحصّن أصحاب أيٍ من الديانات المذكورة داخل مفهوماتها العقائدية والأيديولوجية الخاصة، فإن طبيعة العلاقة بالآخر ستكون علاقة ريبة وشك وحذر وكراهة. ولعلَ من الجدير بالذكر إنَّ أيًّا من الديانات السماوية المذكورة تشمل تحت إطار مفهوماتها العقائدية الثابتة على علاقة ثنائية أخرى، داخلية، – إن صحت العبارة –.

فلو أخذنا الإسلام – مثلاً – بوصفه مفهوماً عقائدياً كبيراً اندرجت تحته طوائف وشعوب وملل ونِحْل متعددة ومختلفة، وهذا ما أطلقوا عليه قياماً (دار الإسلام)، فلو نظرنا هذا المفهوم سنجده أنه مشتمل في داخله على لون من ألوان الثنائية، كأن تكون ثنائية عرقية، فدار الإسلام استظل تحت سقفها العربُ والفرسُ والهنود والبربر إلخ، أو قد تكون العلاقة الثنائية قائمة على الاختلاف العقائدي الفرعي (المذهبي) سُنّي، شيعي، مصرى، شامي، إلخ. والشيعي قد يكون زيدياً، إمامياً، إسماعيلياً وهكذا دواليك. كما نستنتج – أيضاً – أن مفهوم الآخر يقتضي من الذات أن تحدده وتحكم علاقتها به عن طريق الاختلاف الذي قد ينسحب على اختلاف في كلّ نظم الحياة من عادات وتقاليد وأدوات وألسنة...، ولا يشترط في تحديد طبيعة تلك الصورة المرسومة عن الآخر القبح والاستهجان، فقد تطفح صورة الآخر مضيئة ومليلة بمشاعر الإعجاب والاستحسان والإجلال – أيضاً – كما هو حال بعض من نادى وينادي الآن من أبناء الشرق بضرورة احتذاء الشرق حذو أوربا لأن صورتها وصورة أهلها في ذهنه تمثل كمالاً بشرياً وسعادة إنسانية مطلقة يفتقر إليها الشرق وأهله بمناقصهم وتعاستهم التي لا تزول إلا بحذوهم حذو أهل أوربا.

## المبحث الثاني : الجاحظ ومفهوم الآخر

عرف الجاحظ (ت ٢٥٥ هجري) بثقافته الموسوعية وتأسيسه لمبادئ وأصول البيان في التراث النقدي والبلاغي العربي عبر كتبه ورسائله العديدة التي يقف البيان والتبيين في مقدمتها، وبذهب أحد الباحثين أبعد من هذا الرأي، فقد رأى أنَّ الجاحظ قد جمع بين وضع أصول البلاغة العربية وبين التأسيس لمبادئ الجمالية الأدبية التي نمت وتطورت من بعده انطلاقاً من تلك المبادئ والجذور<sup>(١)</sup>، في حين يذهب باحث آخر نظر الجاحظ من زاوية أخرى فراح يبرهن على أنَّ أديب البصرة (الفنان الأصيل الذي عالج بإسلوب ساخر موضوعات متنوعة ومهمة مستمدَّة من طبيعة الحياة السائدة في عصره، وفي مجتمعه، كما اتصف بقدرة عجيبة على التغلغل السايكولوجي في أعماق النفس البشرية في حالتها السوية الطبيعية المعتادة وفي حالتها المنحرفة

<sup>(٢)</sup>)

ومما لا شك فيه فإنَّ الجاحظ سيظلَّ متنوعاً وذا جاذبية خاصة للباحثين، وإن اختلفت مناهجهم وتباينت أدواتهم، لما تشمل عليه آثاره التي (لا يمكن أن نسلكها إلا في كتب الأدب)<sup>(٣)</sup>، من مادة طريفة وغنية، ومن طرائق في التعبير متقدّدة وخاصة.

إنَّ قراءة سريعة لمجمل التراث الجاحظي وهو - كما نرى - تراث وثيق الصلة بالذهنية العربية التي أبدعته، وهي في حالة مواجهة آخر مغاير، إنَّ هذه القراءة ستكشف لنا عمق تأثر هذا التراث بالمسار التاريخي الذي امترز فيه العنصر السياسي بعنصررين آخرين لا يقلان شأنَا عن الأول، وهما العنصر التقافي والعنصر الاجتماعي، فبيئة الجاحظ التي أسهمت في بلورة وعيه وفي تكوينه الثقافي كانت عوالم مدينة البصرة، البوابة الأولى للدولة العربية في أول أيام فتوتها، وقد كانت هذه المدينة ملتقى ثقافات عديدة وافية، متنوعة ومختلفة، مثلما كانت ساحة لصراعات فكرية وثقافية واجتماعية متعددة كان الجاحظ أحد أهم أطراف هذه الصراعات، فهو العقل المدبر لفرقة (الجاحظية) إحدى أكبر فرق الاعتزال الشهيرة بالبصرة<sup>(٤)</sup>.

ويبدو أنَّ الجاحظ كان ينطلق في تصوّراته التي نسج خلَلها أفكاره من دائرة كبيرة اجتهد كي تصطبغ بهوية أمة كان يتربيص بها مدّ شعوبيَّ أراد تقويض ما شيدَت من بناء؛ ولذا فإنَّ أغلب كتب الجاحظ وأفكاره تدور في إطار تلك الدائرة التي كانت تمثل حافزاً استطاع من خلاله

توظيف قدرته وملكه الإبداعية في الرد والمجابهة والذب عن مقومات الحضارة العربية وعن معدنها الأول العربي.

وقد كان الجاحظ مدركاً عمق الهجمة وشراسة التعرّض فجاءت ردوده الواعية وغير الوااعية تبعاً لذلك منسجمة وموازية لحجم ذلك التعرّض وكثافته - فعلى سبيل المثال - نجد في البيان والتبيين يجعل البيان والبديع مقصورين على العرب دون غيرهم وإنْ سواهم من شعوب الأرض كان يجهل أمرهما جهلاً مطبيقاً فيقول: (إنْ كل كلام للفرس وكل معنى للجم، فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي، وطول خلوة، وعن مشاورة ومعاينة، وعن طول التفكّر، ودراسة الكتب .... وكل شيء للعرب فإنما هو بديهية وكأنه إلهام، وليس هناك معاناة ولا مكافحة ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصم .... فتأثيره المعاني أرسالاً وتتّل على الألفاظ اثنيلياً) (١٣) ويضيف في صفحة أخرى من كتابه الذي زخر بفضل العرب وبسباقهم لغيرهم من الأمم لطبيعة خاصة في تكوينهم البشري المختلف عن الآخرين فيقول: (العرب كلهم شيء واحد لأن الدار والجزيرة واحدة، واللغة واحدة، وبينهم من التصاهر والتشابك والاتفاق في الأخلاق والأعراق من جهة الخوزولة المرددة والعمومة المشتبكة، ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة وطبع الهواء والماء، فهم في ذلك شيئاً واحد في الطبيعة واللغة، والهمة والشمائل والمرعى والراية، والصناعة والشهوة، فإذا بعث الله - عزّ وجل - نبياً من العرب فقد بعثه إلى جميع العرب وكلهم قومه؛ لأنهم جمِيعاً يَدُ على العجم وعلى من حاربهم من الأمم، لأنَّ تناكحهم لا يعودهم وتصاهرونهم مقصور عليهم) (١٤).

ومن خلال الفقرتين السابقتين اللتين لا يجوز قراءتهما وفق مبدأ اعزاز الرجل بهويته الثقافية وعروبيته فحسب، وإنما من خلال ما تمت الإشارة إليه، وعليه سيتضح لنا أن الجاحظ كان يصوغ فكرته عن الأنا -الـ (نحن) عبر محاور ثلاثة، وهي - وإن تأسست أصلاً على سمو لغة العرب وتفرّدها حيث هي وسيلة من وسائل رصد الآخر وضبطه وإن نطق بها<sup>(١٥)</sup>- ستمثل في الوقت ذاته وسائل إقصاء للأخر واستبعاد له، وإن من يقع خارج إطار هذه المحاور فهو خارج عن الـ (نحن)، وقد تشخصت هذه المحاور بالنسبة واللغة والبيئة، ولذا فلا عجب أن نرى الجاحظ - ذلك الكاتب الساخر - يتتمر حين تهتز حضن الذات الجماعية التي يؤسس مركزاتها وفقاً لتصوراته السابقة، فهو لا يتردد في ترجيح كفة عقول عموم نساء العرب على كفة عقول خاصة رجال العجم قائلاً في كتابه الحيوان: (وإذا كان نساء العرب في الجملة أعقل من رجال العجم، فما ظُنِك بالمرأة منهم إذا كانت مقدمة فيهم؟)<sup>(١٦)</sup>، وقد ضم كتابه هذا كثيراً من الإشارات والمقولات التي لا تدل على اعزاز الجاحظ بالذات الجماعية فحسب، وإنما تؤكد توقفه لفصل الآخر عن هذه الذات التي تمركزت على اللغة أو لاً بوصفها أول دواعي المطابقة، وأول دواعي الاختلاف أيضاً فيقول في مقدمة حيوانه: (وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم وتشابه فيه العرب والعمّ؛ لأنّه وإن كان عربياً وإعرابياً، وإسلامياً جماعياً، فإنه أخذ من طرف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع، وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجдан الحاسة وإحساس الغريرة...)<sup>(١٧)</sup>، فالجاحظ يقدم اللغة بوصفها هوية ثقافية موحدة على الدين بوصفه رابطاً وجماعاً لمجموعة هويات قد تختلف ثقافياً! ولأنّه عاش عصر الاختلاط والصراع الفكري والثقافي بين العرب والأمم الأخرى؛ فهو قد عاين الآخر المختلف من خلال ذاته الجماعية أو لاً، ثم حاول بذلك أن يسجل أوجه التوافق والتواصل والافتراق والاختلاف بين ذلك الآخر وبين العربي مدوناً ومحصياً كثيراً من الإشارات والدلائل التي سنأتي عليها.

### **المبحث الثالث: صورة الآنا والآخر في كتاب البخلاء**

انتهينا في مبحث سابق إلى أن صورة الآخر المتشكّلة أو المتخيلة عن مجموعة معايرة غالباً ما تكون صورة مستهجنّة ومنفّرة، وربما قد تأتي صور للآخر تتطوّي على معانٍ بالإعجاب والاستحسان، ومن اللافت أن تجد الجاحظ قد تتبّأ قديماً إلى ما توصل إليه المهنّمون بدراسة الآخر حديثاً، فهو حين يسند للترك مناقب عرفوا بها، فإنه يقابل هذه المناقب بمناقب أخرى

تحظى بها أمم وجماعات أخرى من غير الترك فيقول: (إن كان لا يمكن ذكر مناقب الترك إلا بذكر مثال سائر الأجناد، فترك ذكر الجميع أصوب، والإضراب عن هذا الباب أحزم) <sup>(١٨)</sup>، ثم يفصل بعد ذلك كيف أن لكل أمة من الأمم مناقب تعرف بها بين الأمم الأخرى، حيث تحدث عن ذلك في موضع آخر من رسالته هذه، ومنها قوله: (ثم اعلم بعد ذلك كلّ أمة وكلّ قرن وجيل وبني أبٍ وجدهم قد برعوا في الصناعات وفضلوا الناس في البيان أو فاقوهم في الآداب أو في تأسيس الملك أو في البصر بالحرب) <sup>(١٩)</sup>، وهذا يعني - بحسب الجاحظ - أنَّ كلَّ أمة منقبةً امتازت بها، فالفرس لهم منقبة اشتهروا بها دون غيرهم تمثلت في تدبيرهم لسياسة الدولة وإدارة الملك، وهذا شيء عرف بالمشاهدة والمعاينة، ولكن هذه المنقبة لا يجوز ولا يمكن أن تتطابق بكل فارسي فتغدو حلية له لأنَّه فارسي، وإنما هي حرفة أتقنها الخاصة منهم، والخاصَّة لا يمثلون السواد من الشعوب، فالصورة الحقيقة عن الآخر تتشكّل عبر مجموعات الأكثريَّة الغالبة، حيث إنَّ هذه الأكثريَّة تعدُّ الأرضيَّة الملائمة لتحديد ملامح الصورة وتأنطيرها <sup>(٢٠)</sup>، وهذا ما سنحاول الوصول إليه بعد التعريف بطبيعة المتن الثقافي الموظف لاستجلاء ملامح تلك الصورة.

### - كتاب البخلاء

لعل كتاب البخلاء أقل آثار الجاحظ حظوة عند الدارسين\* مع كونه يضم نصوصاً متعددة لأكثر من موضوع شيق يجد فيها المتأمل لذَّةً وفوائد جمَّةً فيها فنون الأدب والتاريخ والأخبار وطبعات السلوك البشري والأحداث والواقع التي يمتزج فيها التسجيل الحرفى لمفردات الواقع بالخيال البارع الذي يعيد صياغة الواقع بحيث يبدو وكأنَّه أكثر صدقًا وثراءً ودلالةً من الواقع ذاته بسبب ما تضفيه العبرية المبدعة من لمسات خاصة تأخذ بقلب المتألق وحواسه، والجاحظ بلا ريب - أحد عباقرة أدبنا العربي قديماً.

وقد احتوى الكتاب أخباراً وأحداثاً يومية حدثت بالفعل فرصدها الجاحظ بنفسه أو عبر سمعها من آخرين عاصروه، وقد جاء بعض هذه الأحداث مؤثِّر السند أحياناً فيما جاء بعضها الآخر مفقود السند أحياناً أخرى، وقد يدعونا هذا إلى القول باحتمالية قيام الجاحظ بخلق شخصيات (بخيلة) متخيلة لا وجود لها بالواقع، وقد رأى أحد الباحثين أنَّ كثيراً من نصوص البخلاء (هي نصوص من اختراعه [الجاحظ])، وهذا تشريف له بمعنى ما، فإذا كان التزييف ينتقص من قيمته كرواية فإنه يُعلي من شأنه ككتاب) <sup>(٢١)</sup>، ويبدو أنَّ الجاحظ لم يعتمد الواقع والأحداث اليومية وحدها فيربط مفاصل كتابه هذا، وإنما كان يضطر - أحياناً - إلى خلق أحداث وتخيل وقائع فيختفي نتيجة لذلك السند الذي لم يأبه له الجاحظ كثيراً في كتابه هذا إذا ما قرر بكتاب البخلاء الأخرى التي جاءت بعد كتابه <sup>(٢٢)</sup>.

وتأسيساً على ما تقدَّم، يمكن لنا القول بأنَّه رغم ما يبدو من طغيان العنصر الإخباري والتاريخي (الموظفين) لدعم رؤية الجاحظ عن الآخر، فإنَّ الجاحظ لا يتوانى عن توظيف الخيال أيضاً تثبيتاً لرؤيته الذاتية وتأكيداً لما يلائم قناعاته الشخصية.

ويبدو أنَّ أديب البصرة قد توجَّه في كتابه هذا إلى أحد أعيان القوم أو أحد رجالاتهم المعروفة في ذلك الزمان، حيث يقول في مقدمة الكتاب: (وقلت: أذكر لي نوادر البخلاء واحتجاج الأشقاء) <sup>(٢٣)</sup>، في حين يرى الدكتور محمد الاسكندراني أنَّ سبب تأليف الكتاب هو لمواجهة المذِّشعوبى الذى استشرى في زمان الجاحظ حيث يقول: (ربما أراد الجاحظ الرد على الشعوبية فاصططع الهجوم المعاكس ووصف أهل مرو وخراسان بالبخل ووصمهم بالشح وجَّلَ هذا الهجوم بنوادر وحكايات وُصِّمَ بها بعض العرب من عرف بالبخل، بل ربما اصططع ذلك ليستر مقصدَه بعيداً عن أعين الرقباء والنقاد) <sup>(٢٤)</sup>.

ومن الجدير بالذكر إنَّ قيمة الكتاب الفنية والتاريخية قد استدعت ظهور تحقيقات عديدة له بذل خلالها محققون لامعون جهوداً مضنية من أجل إخراجه للنور على أتم وجه وأحسنها <sup>(٢٥)</sup>.

## - منحنيات الأنّا والآخر

المحنا في سطور سابقة إلى أنّ الجاحظ اتخذ من شخصيّة الإنسان الفارسي مادة يؤسس عليها تصوّراته عن الآخر، دون أن ننسى أن شخصيّات كتاب البخلاء هي شخصيّات مأخوذة من البيتين العربيّة والفارسية، ولكننا سنكتشف أنّ الجاحظ يحاول تتميّط صورة الفارسي من خلال وضع هذه الصورة بقالب بغرض وخاصّ بهؤلاء القوم، بحيث يصبح - وفقاً لهذا القالب - إطلاق صفة البخل على كل من ينتمي لهذه الأمة، ولعل ذلك وراءه أسباب كثيرة منها كون الفرس قد لازموا بيئه الجاحظ وعايشوا العرب في ديارهم بعد الفتح الإسلامي لا سيما الموالي منهم، فضلاً عن التجاور الأزلي للأمتين عبر التاريخ، وقد تسبيّت هذه الملازمة في إيجاد لون من ألوان البعض المتبادل بين الطرفين ترتب عليه نشوء محاولات إقصاء واستبعاد يقوم بها كل طرف إزاء الطرف الآخر، ومثل هذا الأمر غالباً ما يحدث بين الأمم والشعوب المجاورة، ولنا في الأدب الفارسي قديماً وحديثاً شواهد ونصوص لا تحصى في محاولة تتميّط صورة الإنسان العربي والسخرية منه عبر تشويه هذه الصورة منذ شاهنامة الفردوسي وحتى يومنا هذا<sup>(٢٦)</sup>.

ومن المثير أن نرى الجاحظ يفطن إلى أثر المجاورة بين الأمم المختلفة في تغذية روح العداوة والكراهيّة مستشهاداً على ذلك بأنّ عداوة اليهود - جيران المسلمين - للMuslimين أشد من عداوة غيرهم كالنصارى - مثلاً - حيث شخص تلك العداوة على أنها قائمة على (أن اليهود كانوا جيران المسلمين في يثرب وغيرها، وعداؤه الجيران شبيهه بعداوة الأقارب في شدة التمكّن وثبتات الحقد، وإنما يعادى الإنسان من يعرف، ويميل على من يرى، ويناقض ويشاكل، ويبدو له عيوب من يخالط، وعلى قدر الحب والقرب يكون البعض والبعد، وحروب الجيران وبني الأعمام من سائر الناس وسائر العرب أطول، وعداوتهم أشد...)<sup>(٢٧)</sup>.

وعلينا أن لا ننسى أهمية العامل السياسي الذي كان من نتائجه صعود نجم العنصر الفارسي مع قيام الدولة العباسية وما ترتب على ذلك الصعود من شعور بالاستطالة والتقوّق على العرب ولا سيما أيام الرشيد، وربما قد ولد هذا شعوراً مقاولاً يوازي ذلك الشعور لدى النخب العربية المفكرة آنذاك وقد حاولت تسريب هذا الشعور بوعي منها أو بدون وعي. وهذا ما سناهوا مقاربته عبر نماذج محددة من بخلاء الجاحظ وصورة سلوكهم المتفّرد.

فالجاحظ يعلن موقفه الخاص من البخل كسلوك إنساني في مقدمة كتابه، حيث يصف البخل بالعار الذي يلحق صاحبه أيّاً من يكون فيقول في مقدمة كتابه: (فقلت بين لي ما الشيء الذي خجل عقولهم [بالبخل] وأفسد أذهانهم وأغشى تلك الأ بصار، ونفض ذلك الاعتدال، وما الشيء الذي له عاندوا الحق وخالفوا الأمم. وما هذا التركيب المتضاد والمزاج المتنافي، وما هذا الغباء الشديد الذي إلى جنبه فطنة عجيبة؟)<sup>(٢٨)</sup>.

ومعروفة أنّ البخل ليس له حدود إقليمية يقف عندها فلا يجاوزها إلى أخرى، وإنما هو سلوك إنساني لا يعرف الحدود، وقد حفلت به الآداب الإنسانية عموماً فشاع أدب البخل والبخال في شتى الأمم، وتحولت بعض الشخصيات المسرحية والقصصية إلى نماذج أدبية عالمية كما هو حال (هرباكون) في مسرحية البخيل للأديب الفرنسي الكبير (مولير).

وقد أثبت الجاحظ حقيقة أنّ البخل لا حدود جغرافية له، ولذا فقد تنوّعت نماذج البخلاء وشخصيّاتهم في كتابه، فهي عربية وفارسية، واقعية ومتخيّلة، ومن بينتين مختلفتين بدويّة وحضريّة، حيث رأت الأولى في الكرم صورة من صور استمرارية الحياة في البوادي المجدبة، بينما رأت الثانية في الاقتصاد والتدبّر وسيلة من وسائل مواجهة حياة جديدة معقدة اهتزّت فيها القيم والمعايير في واقع جديد مغاير.

و حينما نقصّى النظر في طريقة انتقاء الجاحظ لهذه الشخصيات - وهذا مدار البحث وغايته - وحينما نحلّ آلية الجاحظ في حشده للمعلومات والواقع والشواهد التاريخية، وتوظيفه

لكل المعطيات التي تؤكد صحة مقولاته، وكيفية التعبير عن هذه المقولات، فإننا سنجد الرجل قد ينساق في خطابه هذا في اندفاع ذاتي متحيز؛ مما يجعل من هذا الخطاب خطاباً أحادي الاتجاه فيتناوله للموضوعات والأشخاص والأحداث بحيث يبدو هذا الخطاب في نهاية الأمر يميل إلى أن كل ما هو عربي ينفرد بالسمات الإيجابية، وكل ما هو فارسي يفقد هذه السمات فيقع تحت السمات السالبة، فالالم كما يقول د. عبد الله إبراهيم: (تساجل فيما بينها عبر الصور الإكراهية التي تشكلها بواسطة سرود تركب صوراً مشوّهة لغيرها، وقوامها إن هو إلا نسيج متشارب من المرويات الخاصة بها عن نفسها وعن الأمم الأخرى وغالباً ما تحمل تلك التصورات عبر التاريخ مدونات وصفية أو تخيلية تتوارى فيها الصور الكلية للمشاعر والتطلعات والتجارب والقيم الدينية والنفسية والأخلاقية، واستطراق تلك المتون إنما هو استطراق لذاكرة، ونقدتها إنما هو محاولة لوقف استخدامها كايدلوجيا في نزاعات معاصرة) <sup>(٢٩)</sup>، وسنأتي على توضيح بعض من تلك الصور في مبحثنا القادم.

#### المبحث الرابع : نماذج محللة لصور الآخر في كتاب البخلاء

تواجه الباحث صعوبة تحديد نوعية الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه كتاب البخلاء، فليس له من الصفات ما يكفي لتمييزه عن الأجناس الأخرى، وربما جاز لنا القول إنه خطاب له منطقه الذاتي، وبناؤه الخاص ومكوناته المحددة التي يمزج فيها الجاحظ الغرائبي والعجيب بالواقعياليومي، مما يجعل منه أقرب للنصوص الإبداعية التي هي نصوص تكون فيها (العلاقة بين أنا والآخر هي أحد خيوطها النasseجية) <sup>(٣٠)</sup>، ولنا أن نتساءل: أكان لهذا النص (البخلاء) أن يرى النور بكل هذا التكثير في تاريخ الأدب العربي لولا لحظة الاصطدام بالآخر الفارسي، وبمن حمل ورقة لشاعر الشعوبية على وجه الخصوص؟

قبل أن نجيب عن هذا التساؤل، علينا أن نحل مضمون بعض من شخصيات ونصوص الكتاب بما يتلاءم وطبيعة الدراسة لغرض تحديد ملامح صورة الآخر التي رسمها الجاحظ آخذين بنظر الاعتبار آلية أدبينا في عملية رصده للإشارات والدلائل التي تكمّل ملامح تلك الصورة كالسلوك العام ونظام الطعام وهيأة اللباس إلخ، ثم نحاول من خلال ذلك كله الإجابة عن السؤال المطروح وكما سيتضح لنا من خلال ما يأتي :

أولاً/ شخصيات واقعية

أ/ سهل بن هارون

ينحدر سهل بن هارون من أصول فارسية، وكان الرجل من أعيان بغداد في عصر الجاحظ فقد اتصل بخدمة الخليفة العباسى هارون الرشيد كما اتصل بالمأمون متوليا خزانة الحكم له وكان سهل فصيحاً وشاعراً ومتقناً للعربية إلا أنه كان ذا نزعة شعوبية غلت هواه <sup>(٣١)</sup>.

وقد ابتدأ الجاحظ بعد ذكر خطبة الكتاب بإيراد رسالة طويلة لسهل بن هارون يحتاج فيها لمذهبة في البخل والشح، وقد جاءت هذه الرسالة كما يرى د. إمبيريوك ضمن الجانب النظري أو ما يسميه (احتجاجات البخلاء) وهذا الجانب عبارة عن مجموعة رسائل ووصايا وردود كانت تمثل وجهة نظر البخلاء في مذهبهم هذا، في حين جاءت تطبيقات هذه الرسائل والوصايا على شكل قصص قصيرة ونوادر مقتضبة تمثل لقطات من الحياة اليومية العامة للبخيل وسلوكيه الخاص <sup>(٣٢)</sup>.

ولم يأت اختيار الجاحظ لسهل بن هارون اعتباطاً فالرجل كان موبراً ومن عليه القوم بدليل اتصاله بخلفاء بني العباس ولكن الجاحظ صيره رائد القوم وحاديهم في مضمار (البخل) ولعل سبب ذلك يعود لنسب سهل ذي الأصول الفارسية، وحين نأتي إلى هذه الرسالة التي كتبها الأب الروحي للبخلاء، أو التي كتبها الجاحظ على لسانه نستطيع أن نسجل بعض الإشارات التي تبين وجهة نظر الجاحظ في تمثيله لشخصية سهل بن هارون الرجل الغنى الذي يحيا حياة الفقراء وهذه الملاحظات هي:

- يوصي سهل بن هارون خادمته ويلحّ عليها كي تجيد العجن ليكون ذلك أزيد في ربع العجين.<sup>(٣٣)</sup> (نحوه وإكثاره)
- يرى سهل أن من لا يعرف موقع السرف في الموجود الرخيص فهو لا يعرف موقع الاقتصاد في الممتنع الغالي، لذا فهو يقترب ويُشحّ مبتدئاً من هذا الموجود الرخيص كالماء<sup>(٣٤)</sup> مثلاً.
- يمنع الفاكهة والرطب عن عبيده وأولاده وأزواجه بغلقها بأوان مختومة لاقتاح<sup>(٣٥)</sup>.
- يخصف نعله ويصدر قميصه<sup>(٣٦)</sup> [يرفعه عند الصدر].
- يكتنز المال ظناً منه أن سيعمر طويلاً<sup>(٣٧)</sup>.
- يخشى الإنفاق خوفاً من الفقر<sup>(٣٨)</sup> (وهو الغني).
- يقيم المال على العلم<sup>(٣٩)</sup>.

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أن سهل بن هارون رغم شهرته وغناه فقد مثله الجاحظ أو هو مثل نفسه على لسان الجاحظ على أنه غفل مبهم بعيد عن الحق وإن امتلك الحاجة التي يدفع بها عن كلّ عيب من هذه العيوب، وكأنّ هذه القدرة التي يمتلكها سهل بن هارون لم تمنعه من الوقوع بالضلال والدونية وقد بدا لنا وكأنه بحاجة إلى من ينقذه من هذا الضلال ومن تلك الدونية! ومن اللافت للنظر أنّ عقلية الجاحظ المستندة إلى مبدأ الديالكتيك الجدلية الذي يقوم على الجمع بين النقائض والبحث في العلاقات القائمة بين تلك النقائض<sup>(٤٠)</sup> قد دعت هذا الفيلسوف المعترض إلى المقابلة بين سهل بن هارون وبين شخصية أخرى من أعيان القوم آنذاك وهي شخصية:

## ب/الكندي

عاش الكندي زمن الجاحظ في المدينة ذاتها واسمه يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي وهو عربي النسب ترجع أصوله إلى قبيلة كندة العربية<sup>(٤١)</sup>، وقد أورد الجاحظ في بخلائه أخباراً عن شحّه وتقديره تحت عنوان (قصة الكندي) ورغم أن الجاحظ لم يصرّح علناً بأنّه يقابل بين الرجلين الكندي وسهل، لكنه صنف سلوكهما تحت حالة مذمومة واحدة هي البخل ولعلّ من يتأمل صورة الكندي في كتاب البخلاء يدرك الاختلاف الواضح بين صورتي الرجلين فالجاحظ (قد أجهد نفسه كثيراً لينفي البخل عن الكندي)<sup>(٤٢)</sup> مثلاً إنّه أخرج إحدى قصص الكندي من قصص وأحاديث المراوزة حينما وردت ضمن قصصهم منها القاريء إلى ذلك الأمر بالقول: (وليس هذا الحديث لأهل مرو ولكنّه من شكل الحديث الأول)<sup>(٤٣)</sup>. ولو عدنا إلى تحليل مضمون صورة الكندي الذي كان يملك داراً يكريها لإيواء الغرباء سند الجاحظ يرسم له صورة تجعلنا نستظرف الرجل كما استظرفه مكره داره أنفسهم فقد (كانوا طبيه وإنفراط بخله وحسن حديثه يحتملون ذلك)<sup>(٤٤)</sup> أي يحتملون ما يضع من شروط لهم لقاء نزولهم بداره، ولعلّ هذه الشروط كانت زبداً هذه القصة (قصة الكندي) ويمكن أن نلخص هذه الشروط التي تصرف بها الجاحظ مضيفاً لها بعضاً من تصوراته بما يلي :

- كان يطلب (الكندي) الطعام لأولاده وأهله من جيرانه وساكني داره بالاحتياط قائلاً لهم: أنتم أحسن حالاً من غيركم فلكلّ بيت طعام واحد وعندكم ألوان شتى<sup>(٤٥)</sup>.

- يشترط على من يكري داره أن يكون له روث الدواب وبعر الشاة وما تبقى من العلف وما شابه ذلك<sup>(٤٦)</sup>.

- يزيد الأجر عند محيء الضيوف لمكري الدار، وقد ترك فيما يدعوه لتلك الزيادة رسالة (نظيرية) طويلة يدور جلّها على ما يتركه سوء استخدام المكررين من أثر سيء على داره، كما تعرض رسالته تلك سبل المحافظة على هذه الدار وهي رسالة طويلة جداً تقارب خمساً من الصفحات<sup>(٤٧)</sup>، وعليه فصورة الكندي حبيبة للنفوس رغم بخل صاحبها فهو يتحال بأسلوبه البليغ على الجiran والناس كي يطعم أولاده وأهله أصناف الطعام على العكس من سهل الذي يمنع

الطعام عن أهله وأولاده بوضعه بأوان مغلقة مختومة! في حين بدا الكندي لنا حريصا على نظافة داره منتفقاً من أي شيء ذي نفع ولو كان روث الدواب.

ومن خلال ما تقدم يبدو أن الجاحظ قد تحكمت في رؤيته للأخر قيم عرقية هي عبارة عن (مجال ثقافي مشبع بمنظومة عقائدية متجلسة)<sup>(٤٨)</sup>، فكان من الطبيعي أن تظهر صورة الآخر صورة مختلفة عن صورة الأنما رغم أن المنطلق الذي قد انطلق منه لتحديد ملامح الصورتين منطلق واحد هو البخل.

وسيوضح لنا ذلك أكثر من خلال تحليل مضمون نموذج تقابلية آخر لشخصيتين امتزج في طريقة صياغتهما الواقع بالخيال وهذا الأنموذج هو:

## ثانياً/ شخصيات الواقع المتخيل

### أ/ العراقي والمرозي

أورد الجاحظ هذه القصة بعنوان منفصل هو (قصة العراقي مع المروزي) بعد حديثه عن أهل خراسان حيث علّ افتتاح كتابه بذكر أهل خراسان بالقول: (نبدأ بأهل خراسان لإكثار الناس [البخلاء] في أهل خراسان)<sup>(٤٩)</sup>، وهذا يعني أن الجاحظ قد وسّم المجتمع الخراساني بالبخل والشح وخصص منهم أهل مرو على وجه التحديد لأسباب تحدّدها طبيعة المرويات التي ينقلها لنا عنهم وهي مرويات يصل بعض منها حدّ الغرابة والبالغة واللاواقعية، وهذا يدفع إلى القول إنّ هذه المرويات ربما قد أسهمت الذات الجماعية (الشعبية) في حبكها وصياغتها فوجدت طريقها إلى سماع الجاحظ ليعيد صياغتها وإنجادها من جديد جاعلا لها إطاراً يوحّدّها ويميزها من باقي المرويات والقصص الأخرى، وقد وصل عدد هذه القصص إلى ما يزيد على (٢٣) قصة وهي أعلى نسبة من القصص التي وردت في كتاب البخلاء عن مجتمع واحد هو (أهل خراسان).

وحيث نقرأ قصة العراقي مع المروزي ونتأملها بإمعان نجد أنها مشوّبة ببعض السمات الذاتية التي تتوارى خلف أسلوب الجاحظ التعبيري، ولو تفحّصنا هذه السمات تبيّن لنا أنها محمّلة بمحولات مرجعية وثقافية تحاول الحطّ من صورة الآخر الأمر الذي يقود إلى تفخيم الذات وإجلالها وكما سيوضح لنا من خلال التحليل الآتي:

يبّرر الجاحظ قصته عبر عنوانها الذي يقدم فيه العراقي على المروزي مع كون الأخير محور هذه القصة موظفاً (أي التعريف) العهديّة الحضوريّة التي (تدخل على واحد من الجنس بعينه)<sup>(٥٠)</sup> فتحده وتعريفه، ويبعدوا لنا أن الجاحظ قد تلاعب بهذا التحديد وكأنه قد نقل مدلول (أي) من العهديّة إلى الجنسية التي تدخل على الجنس ولا يراد بها واحد معين من أفراد الجنس فيكون أحد معانيها الاستغراق<sup>(٥١)</sup>، وعلامة ذلك أن يصبح إبدالها بكلمة (كل) وبذا ربّما جاز لنا القول: إنّ هناك عنوانا آخر أوّحى به هذا التلاعب هو (قصة كل عراقي مع كل مروزي!)، ومما يدعم هذا التوجّه في قراءة أسلوب الجاحظ قوله في استهلاله لقصته: (ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشايختنا على وجه الدهر)<sup>(٥٢)</sup>، حيث عدّ ما قد روى لنا من عالم الغرائب والأعاجيب اللامعقولة ليخرجه عن أنماط ما هو مألوف، أي من دائرة المطابقة / مطابقة الـ (نحن) إلى دائرة المخالفـة / مخالفة الـ (نحن).

وقد أكدّ الجاحظ تكريسه لنصّوره الذاتي عن أهل مرو من خلال الاستعارة الدالة التي اختتم بها جملته المذكورة، فهو بهذه الاستعارة (على وجه الدهر) تحولت معها القصة إلى قصة ذات بعد زمني متجلّ في القدم، وكأنّ الجاحظ أضاف إلى مدلول الاستغراق في الجنس استغرقاً آخر في الزمان فبدت صورة أهل مرو جميعهم صورة موسومة بالذم والبخل على مر العصور والأزمان!

ومن خلال القصة المذكورة سيلمس القارئ أنّ الجاحظ يعمل على ترسیخ تصوّر مسبق هو مروءة العراقي وكرمه ولؤم المرزوقي وبخله وكذبه، ثم يلجاً الجاحظ إلى إبراز هذه العناصر الداعمة لتصوّره مدرجاً من ينتمي لمنظومته الثقافية أي العراقي تحت كلّ ما هو إيجابي وحسن وسالباً هذه الصفات ممن لا ينتمي لتلك المنظومة أي المرزوقي الذي يبدو من خلال المخطط التقابلية الآتي أنه مندرج تحت صفات سالبة وسماته وميّزته عن العراقي بحيث اختلفا كلياً من ناحية السلوك وكما سيوضّح المخطط المشار إليه والمعتمد على أحداث القصة التي سنورد نصّها كاملاً في ملحق أثبتناه في نهاية البحث.

### المخطط التقابلية

العربي (+)	المرزوقي (-)
(١) كان يُكرمه ويكتفي مؤنته.	(١) كان لا يزال يحجّ ويتجّرّ وينزل على العراقي كل عام.
(٢) عرضت له حاجة بمرأه بعد دهر طويل (مرة واحدة).	(٢) كثيراً ما كان يقول له (دون أن يفعل)، ليت أني رأيتكم بمرأه حتى أكافئك لقيم أحسانك وما تُجده لي من البر كل مرّة.
(٣) هون عليه وجود صاحبه بمرأه.	(٣) المرزوقي يصدّم صاحبه وينكره بعد أن نزل عليه
(٤) يدخل على المرزوقي بثياب سفره مكبّاً عليه (الإكباب = إظهار المودة والألفة) فلم يره أثبته فخلع قناعه.	(٤) لم يُثبته ولا سأله عنه سؤال من رأه فقط.. المرزوقي (يكذب ويحتال)، لأنّه أثبت العراقي حقاً
(٥) نزع عمامته ثم أنتسب (عرف باسمه ونسبه).	(٥) كان له أنكر ( يصل إنكاره حدّ الواقحة).
(٦) لم يبق إلا الفلنسوة (لباس يعطي الرأس وينزل على باقي الجسم) فخلعها.	(٦) كان أشد ما كان له إنكاراً (دلالة على الواقحة + نكران المعروف).
(٧) .....	(٧) بعد أن علم المرزوقي انه لم يبق شيء يتعلّق به المتغافل والمتجاهل، يقول (لو خرجت من جدك لم أعرفك)... ثم ينقل لنا كلام المرزوقي بالفارسية.

يتضح لنا من المخطط أعلاه أنّ الجاحظ لا تعوزه دقة الملاحظة والتوضيح عن طريق المقارنة والانتقال المستمر بين السلب والإيجاب حيث لم يجد خلال حركته هذه سبيلاً للانفكاك من ذاتيته التي تدخلت كثيراً في عملية الانتقاء والرصد ثم أثضحت جلياً في التعبير عن ذلك مما يجعل خطابه قائماً على مبدأ القدح والتحقير وهذا المبدأ هو عنصر إجرائي يلجاً إليه الجاحظ دعماً لتصوّرات مسبقة ومن الممكن أن نحدد بعض ملاحظاتنا عن هذه التصوّرات بما يأتي:

- جعل الجاحظ المرزوقي يحجّ ويتعمر كلّ مرّة بحيث بدا لنا كأنّه لا فرق بين التجارة والحج وكلّ منهما ضرورة من ضرورات هذا البخل)<sup>(٥٣)</sup> وبذلك فقد غمز المرزوقي بتبعده ودينه فتمثل لنا يحجّ لعرض المتاجرة.

- كان المرزوقي كثيراً ما يقول للعربي ليتني رأيتكم بمرور حتى أكافئ لكم إحسانكم وهو لم يفعل ذلك حال نزول العراقي الذي عرضت له حاجة واحدة (دهر طويل) فالمرزوقي إذن بخيل وكاذب الوعود.

- المرؤزي يزداد إنكارا للعرقي كلما كشف الأخير عن نفسه وهذه وقاحة وإنكار لفضل معروف سابقين.

- إنّ عبارة المروزيّ: (لو خرجمت من جلدي لم أعرفك) التي ينقلها الجاحظ بالفارسية لنا (أكر أز بوسٌت بارون بيائي نشا ستم) تشير إلى محاولة الجاحظ قلب الحقائق لدعم تصوّره بحيث يجعل من الخيال واقعاً عيانياً حدث بالفعل وعبارة المروزي ستكون - في رأي الجاحظ على الأقل - دليلاً على واقعية الحدث وصحته دون أدني شك!

ب/خالویہ

**يخصص الحافظ لهذه الشخصية الفريدة عنواناً بارزاً منفصلاً هو (خالد بن يزيد) معرفاً به بالقول: (وَهُذَا خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ مَوْلَى الْمَهَابِلَةِ، هُوَ خَالُوْيِهِ الْمَكَدِّيُّ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ فِي الْبَخْلِ وَالْتَّكْدِيَّةِ وَكُثْرَةِ الْمَالِ الْمُبَالَعِ الَّتِي لَمْ يَبْلُغُهَا أَحَدٌ)، وَكَانَ يَنْزَلُ فِي شَقَّ [حَيٌّ] بْنِي تَمِيمٍ فَلَمْ يَعْرُفُوهُ<sup>(٤)</sup>.**

ويبدو لنا من خلال هذا التعريف إن الجاحظ قد شطر عالم هذه الشخصية إلى شطرين هما: عالم واقعي وعالم متخيل حيث تتمثل واقعية هذه الشخصية وجودها التاريخي من خلال تعبير الجاحظ: (وهذا خالد بن يزيد مولى المهالبة) جاعلاً للاء الرجل يرجع إلى أحد البيوت العربية الشهيرة المنحدرة من المهلب بن أبي صفرة<sup>(٥٥)</sup>، في حين عبر الشطر الثاني من جملة الجاحظ المشطورة هي ذاتها إلى قسمين، عن الجانب الخيالي لهذه الشخصية التي تولى خيال الجاحظ الخشب خلقها وإبداعها، ونلحظ أن جملة الجاحظ الخبرية ذاتها اشترطت على مستوى التعبير إلى قسمين من حيث طريقة الإخبار عن هذه الشخصية حيث تداخل الخبر الأول (وهذا خالد بن يزيد مولى المهالبة) مع خبر ثان تال (هو خالویه المکدی) وكأنّي بهذا الخبر المزدوج سيفول، كذلك، إلى إخبار عن شخصية ذات بعد مزدوج واقعي/خيالي، حيث يؤكّد البعد الأول أنّ خالد بن يزيد بشر من لحم ودم، في حين يجنب بعدها الآخر، هو خالویه المکدی إلى رؤى خيالية يحاول الجاحظ من خلالها تأطير هذه الشخصية مستوحياً وجودها الواقعي المتمثّل (بشخصية البخيل والمتشرّد والقاص والمحتاب وصاحب الثروة التي يخاف عليها ويبيح بها)<sup>(٥٦)</sup>، ثمّ متّجاوزاً ذلك الوجود إلى وجود آخر ذي طابع أدبي خيالي يجسّد أنموذج خالویه ذي الاسم الأعجمي، فليت شعرى أهناك غاية ما تقف وراء الجاحظ وتدفعه إلى هذا الخلق الفانتازى؟

قد يشفع لنا التحليل الذي سنجريه على بعض عناصر هذه القصة بالحصول على إجابة مقنعة فيما لو تجاوزنا الوجود الواقعي التاريخي لخالويه الذي لن ينفعنا بشيء قدر مايهمنا البعد الخيالي لهذه الشخصية الفريدة التي نفت فيها الجاحظ من روحه وسحره، فمثل هذه الشخصية وإن كانت تنتمي إلى الواقع أي ذات مرجعية واقعية فهي في آخر المطاف بعيدة كل البعد عن الواقع لأنّ خالويه في نصّ البخلاء هو خالويه المتشكّل بأسلوب الجاحظ الأديب وهو الشخصية التي قدّها ذلك الأديب قدّاً بلغة بـ<sup>بـ</sup>كر لم يُسبق لمثلها من ذي قبل في أدبنا العربي!

فما هي الآلية التي وسمت أسلوب الجاحظ وهو يبتدع عوالم تلك الشخصية النموذجية ويرسم آفاقها؟ وما هي الغاية التي وقفت وراء تلك الآلية تحرّكها وتستفزّها؟ وقبل أن نجيب علينا أن نحدد سمات تلك الآلية التي اشتغل عليها الجاحظ، ونرى أنها تمثلت بما يأتي:

## ١/المبالغة والإفراط

جح الجاحظ إلى ضرب من المبالغة ولو من الغلو في رسم شخصية خالويه المكدي - وبالتأكيد- فهو لم يكن ليرمي من خلال مبالغته وغلوه في وصف ملامح شخصية خالويه إلى إمتناع المتألق وإثارة دهشته فحسب، وإنما يسعى من خلال ذلك إلى غاية أخرى يُضمرها النص ولا يشي بها قدر تصريحه بمحاولة إمتناع المتألق وتسلطيه، لندع الجاحظ يتحدث لنا عن خالويه الذي لم يكن أحد منبني تميم ليعرفه وهو بين ظهارنيهم، وكأنه أراد أن يعرف به بطريقته الخاصة حيث يقول: (فوقف عليه [على خالويه] سائل وهو في مجلس من مجالسهم، فأدخل يده في الكيس ليخرج فلسا، وفلوس البصرة كبار فغلط في درهم بغلٍ) \* فلم يفطن حتى وضعه في يد السائل، فلما فطن استرده وأعطاه الفلس فقيل له: لا نظنه يحلُّ، وهو بعد بمثال قبيح، قال: قبيح عندكم وأما أنا فإني لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم، ليس هذا من مساكين الدراهم، هذا من مساكين الفلوس، والله ما أعرفه إلا بالفراسة، قالوا: وإنك لتعرف المكذبين؟ قال: وكيف لا أعرفهم؟ وأنا كنت كاجار في حادثة سئي، فلم يبق في الأرض مختراني ولا مستعرض، إلا فقته، ولا شاذ ولا كاغاني ولا بانوان ولا قرسى ولا عواء ولا مشعب ولا فلور ولا مزيدي ولا إسطبل إلا وكان تحت يدي، ولقد أكلت الزكوري \* ثلاثة سنّة، فلم يبق في الأرض كعبي ولا مكداً إلا وقد أخذت العرافه عليه، حتى خضع إلى إسحاق قتال الحرر، وبنجويه شعر الجمل، وعمرو القوقيل وجعفر كردي كلك... )<sup>(٥٧)</sup>.

إن خالويه كما صوره الجاحظ شخص خارق حذايق الكدية والحيلة منذ حداثة سنّه حتى أصبح في وجдан كل مكداً ومحتاب وعراف قوة لأنقهر بمن فيهم المرأة منهم كإسحاق قتال الحر، وبنجويه شعر الجمل، وعمرو القوقيل، وآخرين من دونهم ونرى أن الجاحظ قد هدَّ من خلال مبالغته وتهويله وتغريبه الواقع عبر تجاوز العادي والمألوف إلى خلق أنموذج فني للبخل قوامه الاحتيال والكذبة والذلة تجسده شخصية خالويه، وهذا الأنموذج وإن بدت إمارات الذكاء والفهم والدهاء تؤطر شخصية صاحبه فإن معايب أخرى كثيرة - بلا شك - اكتفت هذه الشخصية (الفارسية الجنو) التي اختارها الجاحظ وشكلها وصنعتها بالصورة التي تجعلها قابلة للقيام باليقظة التي أرادها منها وهي وظيفة تؤكد - وبالتالي - الأنا لنفسها وتبين كيانها عبر إقصاء الآخر ووضعه بصورة مُؤلبة ستجمد في الأذهان عبر الزمن.

## ٢/التكييف والتثبيت:

عد الجاحظ إلى ميزة آخر بغية السمو بأنموذجه هذا من خلال حشد النعوت وتكليفها الذي وصل حد الإفراط من أجل شحد المعنى والوصول به إلى ذهن المتألق مدھشاً متألقاً وإذا كان الجاحظ لا يصرّح بغايته التي من أجلها يسعى لخلق هذا الأنموذج الأدبي فإن أساليبه المخصوصة تكشف هذه الحقيقة وتُفصح عنها تعبيراته الغائرة في نسجه اللغوي، لنسمع إلى خالويه وهو يصف نفسه أو لنسمع لأدبينا يتحدث عن لسانه حينما كان يخاطب ولداله قائلاً: (قد بلغت في البر منقطع التراب وفي البحر أقصى مبلغ السفن...) ولأنه أهدى من القطا [طائر يضرب به المثل في الاهتداء]... إنني قد بُت بالفقر مع الغول وتزوجت السعلاة [أنى الغول] وجابت الهاشق ورغبت عن الجن إلى الجن واصطدت الشق [حيوان خرافي] وجابت النساء [دابة وهمية] وصحابي الرئي [الجن] وعرفت خدع الكاهن، وتدسيس العراف وإلى ما يذهب الخطاط

والعيّاف [زاجر الطير] وما يقول أصحاب الأكتاف [المنجمون] وعرفت التنجيم والزجر والطرق [الكهانة بضرب الحصى] والفك...).<sup>(٥٨)</sup>

ونلحظ من خلال النص كيف أنّ الجاحظ جمع جملة من المعاني في حيّز منه محدود، وقد بدا لنا خالویه من خلال ذلك رجلاً أسطوريًا تطوي له الأرض ببحارها فهو لا يضلّ ولا يتّيه، مبيته مع غيلان الفلاة، وأزواجه من سعالى البید، وأكله حيوانها الخرافي، فهو العارف بخفايا الكون وأسراره! ولنا أن نسأل: أتى لهذا الشخّاذ أن يعرف كلّ هذا؟ ولعل الإجابة تكمن في أسلوب الجاحظ الذي مثلما حشد كلّ هذه النعوت وكفّها فقد أقصى بعضاً منها وشتّتها مغيباً ذلك البعض عن جوّ النص لأنّه رأى فيه عدم ملاءمة للنص الذي في صدد خلق أنموذج فنّي فريد، لنستمع لخالویه وهو لا يزال مخاطباً ولده: (أنا لو ذهب مالي، لجلست قاسماً، أو طفت في الآفاق كما كنت مكّياً، اللحية وأفرة بيضاء، والحلق جهير طلّ، والسمّت حسن، والقبول علىّ واقع، وإن سألت عيني الدمع أجابت، والقليل من رحمة الناس خير من المال الكثير، وصرت محتالاً بالنهار، واستعملت صناعة الليل [السرقة] أو صرت للقوم عيناً ولهم مجهاً [كشافاً]....).<sup>(٥٩)</sup>

ما من شكّ أنّ الجاحظ مثلما قد أوغل في حشد النعوت التي أسبغها على خالویه ليناحت أنموذجه الفني عبر عالم هذه الشخصية فإنه قد أقصى عنها بالمثل كلّ عجز وقصور، متناسياً جذرها الواقعي وما خواذا بإغراءات الخيال وسحره، فالخالویه قاصٍ إنّ ذهب ماله، لا يُعدم وسيلة ولا تنقصه حيلة، والجاحظ معنٌ في الواقع تفرد أنموذجه وتميّزه، مُقصياً عنه إمكانية أن يُهزم أو يُقهر، ولعلّ الشيء الوحيد الذي استطاع قهر أنموذجه هو الموت - وهو قاهر لا غالب له - وحتى هذا الأخير بما مقصيًّا ومبعداً عن النص لأنّ خالویه بموته قد أعقب ولداً سبِّيزاً أباً في البخل وكأنّما دورة حياة الأب دورة أبدية واكمالها مر هون بعقبه كما سيتضح لنا

### ٣/ توجيه المتنقي:

يحاول الجاحظ من خلال هذه السمة ان يوجه متنقيه للغاية التي ألمحنا إليها من ذي قبل وهي الغاية التي استنفرت جهد الجاحظ وعقريته من أجل صياغة هذا الأنموذج وإبداعه على غير مثال سابق والأنموذج كما يعرّفه أوليفي روبلو هو المثال الذي يظهر بمظهر يُستوجب تقليده وإنّ أنساب مجالات توظيفه هو مجال توجيه المتنقي نحو موقف محدد بحيث سيُهئ هذا الانموذج لقاعدة عامة تحرّض على فعل يُستلزم منه<sup>(٦٠)</sup>، فالجاحظ حينما يقول على لسان خالویه وهو يخاطب ولده: (سلّ عنّي صعاليك الجبل وزواقيل [الصوص] الشام وزطّ الأجام ورؤوس الأكراد ومرَدَة الأعراب وفناك نهر بط [نهر الاحواز] ولصوص الفقص [جبل في نواحي كرمان] وسلّ عنّي الفيقانية [منطقة قرب طبرستان] والقطريّة وسلّ عنّي المتشبهة وذبّاحي الجزيرة، كيف بطشي ساعة الحيلة وكيف أنا عند الجولة وكيف ثبات جناني عند رؤية الطليعة؟... وكيف كلامي عند السلطان وكيف أنا إذا أخذت وكيف صبري إذا جُدت وكيف فلة ضجري إذا حُبست وكيف رسّفاني في القيد إذا أثقلت فكم من ديماس [قبر] قد نفثه وكم من مطبق أفضيته وكم من سجن قد كابدته)<sup>(٦١)</sup>؛ فإنه أي الجاحظ يريد أن يوجه متنقيه إلى وجهة واحدة في خطابه، وهذه الوجهة تدخل في الهدف الأسّمى الذي يسعى له وهي صياغة الأنموذج لذلك نجد الجاحظ يجعل لخالویه ولداً يتنقى عنه ويتجه بتوجيهيه، وتنتهي قصة خالویه بعد ذلك إلى نادرة أتعجب، فما إن يموت الأب حتى يظهر [يولد] الابن الذي بدأ باه في البخل، وأول ما يدخل على أبيه بتغسله بماء عذب فيغسله بماء بتر مالح وبضمّ عليه بكفن فيكفنه بشيابه البالية ثم يدفنه دون أن يضرح له أو يلحد، ثم يعود للبيت ليكسر جرّة سمن كان أبوه ربماً ما اشتتهي أن يخلط له دقيق سمن من هذه الجرّة وهو يقول: (يقولون ولا يقولون، السمن أخو العسل، وهل أفسد الناس أموالهم إلا في السمن والعسل، والله لو لا أنّ للجرّة ثمناً لما كسرتها إلا على قبره، قالوا: فخرج

فوق أبيه وما كنا نظرَ أنْ فوقه مُزيداً<sup>(٦٢)</sup> و هكذا انتهت حياة خالويه في الواقع بموته باعتباره شخصاً ولكن حياته الحقيقية التي أرادها له الجاحظ لم تنته مع موته بل أنها (ستبدأ بوصفه رمزاً حياً للكدية)<sup>(٦٣)</sup> ، وهذا ما هدف إليه أديب العرب الأول الذي جعل من هذه الشخصية أنموذجاً يُحتذى ويُوجه إليه المتنقي إلى درجة كاد أنْ يُصبح فيها أثر خالويه الجاحظ ظاهرة فنية في الأدب العربي بنثره وشعره.

ولعلّ من أول الذين وظفوا هذا الرمز الفني بداعي الزمان الهمданى في مقاماته، حيث نجد في تلك المقامات صدى كبيراً من أصوات الجاحظ، وقد التفت مارون عبود إلى أنْ تلك المقامات ولاسيما المقامة الساسانية هي من موحيات الجاحظ<sup>(٦٤)</sup>. فقد ورد على سبيل المثال في إحدى مقاماته وهي المقامة السجستانية أنْ أبا الفتح الأسكندرى جمع الناس مرّة وقال فيهم: (سلوا عنّي البلاد وحصونها، والجبال وحُزونها، والأودية وبطونها، والبحار وعيونها، والخيل ومتونها، من ذا الذي ملك أسوارها، وعرف أسرارها؟.....)<sup>(٦٥)</sup> وهذا القول - بالتأكيد - سيحيلنا على قول قد ساقه الجاحظ على لسان خالويه مخاطباً ولده: (سلّوني صعاليك الجبل وزوافيل الشام وزطّ الآجام الخ).

كما قد تردد هذا الصدى عند الحريري تلميذ الهمدانى في هذا الفن الذي جعل بطل مقاماته - أبا زيد السروجي - مثلاً للكدية والاحتياط مستوحياً شخصية خالويه التي وظفها استاذه من قبل، لنسمع لأبي زيد يقول في المقامة البصرية: (أنا الذي أندِ وأتهم، وأيمِن وأشَأ، وأصحر وأبحر، وأدلِج وأسحر، نشأتُ بسرورٍ وربتُ على السروج، ثم ولجتُ المضائق، وفتحتُ المغالق، وشهدتُ المعارك، وألنتُ المُعارك،... وأذبَتُ الجوامد، وأدمعتُ الجلامد،... سلوا عنّي المشارق والمغارب، والمناسِم والغواصات، والمحافل والجحافل،... واستوضحوني في نَفَّلَةِ الأخبار، ورواية الأسحار، وحُدَاة الركبان، وحُدَاق الكهان، لتعلموا كم فجٌ سلكتُ، وحِجَاب هتكُ، ومُهلكة اقتحمتُ، وملحمة أحمتُ، وكم أبْلَى خدعتُ، وبدع ابتدعُ، وفرص اخْلَسْتُ، وأسِدَ افترستُ، وكم مُحَلِّق [طائِرٌ] غادرته لُّقْى [تركته مطروحاً] و كامن استخرجه بالرُّفْقِ.....)<sup>(٦٦)</sup>. ومثلاً كان لشخصية خالويه الموجّهة توجيهها فنياً من صانع حاذق أثرها الواضح في النثر العربي القديم فقد كان لها أثرها في الشعر القديم أيضاً فقد ظهرت قصائد كثيرة لشعراء اتّخذوا من موضوعات الكدية والاحتياط والبخل مادةً لهم بوحي من تلك الشخصية الخلابة أيضاً، ومن هؤلاء الشعراء الأخفى العكري وأبو دلف الخزرجي وآخرون كثُر<sup>(٦٧)</sup>.

ونستطيع القول تأسيساً على ماسبق إنْ ذاكرة أدباء المقامات وشعراء الكدية ظلت مشحونة بنصوص كتاب البخلاء ولاسيما شخصية خالويه الأخاذة التي أهمت أولئك الأدباء بما انفكوا يدورون في فلکها وعالمها لقرون طويلة بعد رحيل مبدعها الأول.

ونرى أنْ تخصيص الجاحظ لخالويه ذي الأصل الفارسي إنما يضفي قيمة ذات مستويات متعددة ومتراكبة تتمثل بالتلازم الشديد بين العرق الذي ينتهي إليه خالويه وبين سلوكه كبخيل وشحاذ، حيث استطاع الجاحظ بتصوره الوعي هذا عن الآخر أن يتتجاوز حقل الشعر والأدب إلى حقول معرفية أخرى كالجغرافية والتاريخ - كما سيتضح لنا لاحقاً - مما يدلّ على أنَّ ذلك التصور قد أسهם في توجيه المنظومة الثقافية العربية وشذّها إليه من زمن الجاحظ وحتى يومنا هذا!

تضافرت في عملية حبك مجموعة الأحداث والواقع والمشاهد المرئية بعين الجاحظ نفسه أو المنقوله عن طريق آخرين وسليتان فنتان سخرهما وعي الأديب لدعم تصوّراته عن الآخر، وقد تمثّلت الوسيلة الأولى بالترسل الواقعى في الخطاب حيث بدا الجاحظ من خلال ذلك كائناً تاريخياً من لحم ودم ينقل لنا ما يراه بنفسه من دون أن تتدخل المخيّلة، وقد غلبت على تلك الأحداث المنقوله عبر هذه الوسيلة الأفعال المرتبطة بحاسة البصر مثل (رأيت، وكنت عند، وكنا مع... الخ)، في حين تمثّلت الوسيلة الثانية بالقصص الخيالي العجيب حيث يتحول الجاحظ من مقامه الأول إلى مقام إبداعي يستلزم أن يكون المبدع إزاءه (في حالات مخصوصة قلماً يقدر على اختيار موقعها لأنّها تفاجئه إذ تأتيه بغطّة من حيث لا يدرى)<sup>(٦٨)</sup>، وقد غلبت الأفعال المرتبطة بحاسة السمع على نقل تلك الأحداث والموريّات التي تدور في كتاب البخلاء وهي تتغيّر تجسيم صورة الآخر وتتطايرها وفقاً لل قالب الذي سعى الجاحظ لتبنيه عبر خطابه ومن هذه الأفعال (سمعنا، حدّثنا، ومن عجيب ما سمعناه من مشايخنا.... الخ)، وقد تتدخل هاتان الوسليتان أحياناً بحسب تبدي المشاهدة العينية الواقعية ضرباً من ضروب الخيال والعكس صحيح أيضاً. ولعلّ هذه الواقع والأحداث رغم تنوّعها واختلافها قد انتظمت عبر سلسلة واحدة تحكمها تمثّلت في محاولة الجاحظ بلوره صورة ثابتة للأخر الفارسي فرداً كان أم جماعات تتمحور حول البخل وما يرتبط به من قيم أخرى ملازمة.

ومن الممكن أن نصنّف طبيعة هذه الصورة التي رسمها الجاحظ مبتدئين بتحليل صورة الآخر الفردية ثم صورته الجماعية ومحاولة مقارنتها بصورة الـ(نحن) إن دعت الحاجة لذلك وفقاً لظاهرتين ركّز الجاحظ جلّ اهتمامه بهما وهو يشكّل إطار صورة الآخر، وقد تبدّلت هاتان الظاهرتان عبر خاصتي السلوك والطعام وأدابه.

## أ / السلوك

يُعدُّ السلوك الإنساني من الظواهر البالغة التعقيد والتباين حيث تتدخل عوامل عديدة، جنسية ونفسية واجتماعية وخلقية وروحية إلخ في عملية توجيهه، وإن الإنسان تنطبع شخصيته ومن ثم سلوكه من خلال تفاعله مع البيئة المحيطة التي يعيش ضمن كلّ مكوناتها وتأثيراتها<sup>(٦٩)</sup>، وسنبدأ بعرض مجموعة صور تمثل سلوكيات فردية فيها ضرب من التعدد في المعنى الذي يرسم وجهاً ذا سمات سلبية بكلّ تأكيد وكالآتي:

### أولاً / السلوك الفردي

#### ١/ خراساني يطلق زوجته لأنها غسلت الخوان

يروي الجاحظ نقلاً عن إبراهيم بن سيار قائلًا: دعانا جار لنا، فأطعمنا تمراً وسمنا ومعنا خراساني يأكل، فرأيته يقطّر السمن على الخوان [طبق واسع للأكل] حتى أكثر من ذلك، فقلت لرجل إلى جنبي: ما لهذا الخراساني يضيع سمن القوم، ويعرف فوق الحق؟ قال: ألم تعرف السبب؟ قلت: لا! قال: لأنَّ الخوان له ويريد أن يدسمه ليكون كالدباغ له. ولقد طلق امرأته لأنها غسلت خوانا له عليه دسم بماء حار وقال لها: هلاً مسحته! [مسحا خفيفاً بلطف]<sup>(٧٠)</sup>.

### ٢ / الوالي الفارسي والشاعر

جاء في كتاب البخلاء، حدّثني محمد بن يسير عن والٍ بفارس كان يوماً وهو مشغول بأمر له إذ دخل عليه شاعر فمدحه ومجدّه، فلما فرغ، قال له: أحسنت، يا كاتب أعطه عشرة آلاف درهم، ففرح الشاعر فرحاً شديداً، فلما رأى حاله قال: ( وإنّي لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموضع؟

جعلها عشرين ألف)، فكاد الشاعر يخرج من جلده، فلما رأى فرحة قد تضاعف قال: (وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول؟ أعطه يا فلان أربعين ألف)، فكاد الفرح يقتله، فلما رجعت إليه نفسه [الشاعر] قال له: (أنت - جعلت فداكـ رجل كريم، وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحا، زدتني في الجائزة، وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر، ثم دعا له وخرج، قال: فأقبل عليه كاتبه فقال: (سبحان الله! هذا كان يرضي منك بأربعين درهما، تأمر له بأربعين ألف درهم)؟ قال: (ويلك! وتريد أن تعطيه شيئاً؟ قال: (ولم أمرت بذلك)؟ قال: (يا أحمق، إنما هذا رجل سرنا بكلام، وهو حين زعم أنني أحسن من القمر، وأشد من الأسد، وأن لساني أقطع من السيف، وأن أمري أنفذ من السنان هل جعل في يدي من هذا شيئاً أرجع به إلى بيتي؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب؟ ولكن قد سرنا حين كذب لنا، فنحن أيضاً نسره بالقول ونأمر له بالجوائز، وإن كان كذباً، فيكون كذب بكذب وقول بقول، فاما أن يكون كذب بصدق وقول بفعل، وهذا هو الخسان المبين الذي سمعت به) <sup>(٧١)</sup>.

### ٣ / المروزي والحسن البصري

يروي الجاحظ عن محمد بن يسir قوله: سمع رجل من المراواة الحسن وهو يحدث على المعروف ويأمر بالصدقة ويقول: ما نقص مال قط من زكاة، ويعدهم سرعة الخلف، فتصدق المروزي بماليه كله فافتقر فانتظر سنة وسنة، فلما لم ير شيئاً يذكر على الحسن، فقال: (حسن ما صنعت بي؟ ضمنت لي الخلف)، فأنفقت على عدك وأنا اليوم مذكراً وكذا سنة انتظر ما وعدت، ولا أرى منه قليلاً ولا كثيراً، هل يحل لك هذا؟ اللصّ كان يصنع بي أكثر من هذا)!؟ <sup>(٧٢)</sup>.

### ٤ / المروزي لا يلبس خفّاً ولا نعلا

يروي الجاحظ عن إبراهيم بن سيار النظام قوله عن جاره المروزي: أنه لا يلبس خفّاً ولا نعلا إلى أن يذهب النبق اليابس لكثرة النوى في الطريق والأسواق <sup>(٧٣)</sup>، [مخافة أن تُنقب نعله].

### ثانياً / السلوك الجماعي

#### ١ / مصباح الخراسانيين

يروي صاحب البخلاء قائلًا: زعم أصحابنا أن خراسانية ترافقوا في منزل وصبروا عن الارتفاق بالمصباح ما أمكن ثم أنهم تناهداً [دفعوا ثمن زيت المصباح بالتساوي] وتخارجوا وأبى واحد منهم أن يعينهم وأن لا يدخل في الغرم معهم فكانوا إذا جاء المصباح شدّوا عينيه بمنديل؛ ولا يزال ولا يزالون كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح، فإذا أطfaوه أطلقوا عينيه <sup>(٧٤)</sup>.

### ٢ / خفاف المراوازة

ويضيف صورة أخرى لسلوك المراوازة ناقلاً رواية الخبر عن أبي سعيد سجادة قائلًا: ناس من المراوازة إذا لبسوا الخفاف في السنة الأشهر الأولى التي لا ينزعون فيها خفافهم، يمشون على صدور أقدامهم ثلاثة أشهر، وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر حتى يكون كائهم لم يلبسو خفافهم إلا ثلاثة أشهر، مخافة أن تتجرد خفاف نعالهم أو تُنقب <sup>(٧٥)</sup>.

### ب / الطعام وآدابه

يجعل الجاحظ من الطعام إحدى الوسائل التي يقيّم بها الآخر ويترصدّه وقد عدّ علماء الاجتماع الطعام من الطقوس التي يلتقي عندها أفراد معينون دون غيرهم باعتبار أنّ الفرد (لا وجود له إلا في داخل جماعة يرتکز تضامنها إلى الحرمة الدينية والسحر، وجميع الأفعال التي تؤدي بصورة مشتركة - كالمائكل - على وجه الخصوص، تتسم بطبع حرمي وطقطسي وعلى هذا الأساس لا يحقّ للإنسان الذي لا ينتمي إلى الجماعة الأسرية أن يشارك في أيّ عمل من الأعمال الموقوفة على أعضائه) <sup>(٧٦)</sup>. ويمكن أن نقسم الصورة التي رسمها لنا الجاحظ بهذا

الخصوص إلى قسمين هما:

### أولاً / صورة الفرد

#### ١ / المروزي والضيف

يروي الجاحظ بهذا الخصوص، قال أصحابنا يقول المروزي للزائر إذا أتاه، ولحليس، إذا طال جلوسه: (تغديت اليوم)؟ فإن قال: (نعم) قال: (لولا أنك تغديت لغدتك بعده طيب)، وإن قال: (لا)، قال: (لو لكنت تغديت، لسقيتك خمسة أقداح) فلا يصير في يديه على الوجهين قليل ولا كثير<sup>(٧٧)</sup>.

## ٢ / الخراساني لا يأكل مع الآخرين

ينقل الجاحظ عن أبي نواس قوله: كان معنا في السفينة ونحن نريد بغداد رجل من أهل خراسان وكان من عقائدهم وفقهائهم فكان يأكل وحده، فقلت له: (لم تأكل وحدك)؟ قال: (ليس على في هذا الموضوع مسألة [سؤال] إنما المسألة على من أكل مع الجماعة، لأن ذلك هو التكلف، وأكلي وحدي هو الأصل وأكلي مع غيري زيادة في الأصل)<sup>(٧٨)</sup>.

## ٣ / الشيخ الخراساني

ويروي عن شيخ من أهل خراسان اعتقاد أن يأكل في موضع فيها حضرة وبستانين وماء... فبینا هو يوما من أيامه يأكل في بعض المواقع إذ مرّ به رجل فسلم عليه فرد السلام، ثم قال: هلّ - عافاك الله - فلما نظر إلى الرجل وقد انتهى راجعا يريد أن يطفر الجدول أو يعبر النهر قال له: (مكانك فإن العجلة من الشيطان، فوقف الرجل، فأقبل عليه الخراساني وقال: تريد ماذا؟ قال: أريد أن أغذى، قال: ولم ذاك؟ وكيف طمعت في هذا ومن أباح لك مالي؟ قال الرجل: (أوليس دعوتي)؟ قال: (وبلك، لو ظننت أنك هكذا أحمق، ما ردت عليك السلام) الأحسن فيما نحن فيه أن تكون إذا كنت أنا الجالس وأنت المار، أن تبدأ أنت فتسأل فأقول أنا حينئذ، مجيئا لك: (وعليكم السلام) فإن كنت لا أكل شيئا، سكت أنا، وسكت أنت، ومضيت أنت، وقعدت أنا على حالٍ، وإن كنت أكل فها هنا وجه آخر، وهو أن أبدأ أنا فأقول (هلّ) وتجيب أنت فتقول: (هنيئا) فيكون كلام بكلام، فلما كلام بفعال، وقول بأكل، فهو ليس من الإنفاق، وهذا يخرج علينا فضلا كبيرا، قال: فورا على الرجل شيء لم يكن في حسابه<sup>(٧٩)</sup>.

## ٤ / المروزي الصغير

يحدث صاحب البخلاء عن أحمد بن رشيد بالقول: كنت عند شيخ من أهل مرو، وصبي له صغير يلعب بين يديه، فقلت له، إما عابثا وإما ممتحنا: (أطعمني من خبزكم) قال: (لا تريده هو مرّ) فقلت: (فاسقتي من مائكم)، قال: (لا تريده هو مالح) قلت: هات لي من كذا وكذا) قال: (لا تريده هو كذا وكذا) إلى أن عدت أصنافا كثيرة، كل ذلك يمنعه ويعيقه إلى فضحك أبوه وقال: (هذا من كلام ما تسمع)؟ يعني أن البخل طبع فيهم وفي أعراضهم وطينهم<sup>(٨٠)</sup>.

## ثانيا / الصورة الجماعية

### ١ / حجاج خراسان

يسجل الجاحظ إحدى ملاحظاته الشخصية قائلا: ورأيت أنا حماره منهم [أهل خراسان] زهاء خمسين رجلاً، يتغدون على مباقل [أرض بها بقل] بحضور قرية الأعراب في طريق الكوفة وهم حجاج، فلم أر من جميع الخمسين رجلاً يأكلان معاً، وهم في ذلك متقاربون، يحدث بعضهم بعضاً، وهذا الذي رأيته منهم من غريب ما يتفق للناس<sup>(٨١)</sup>.

### ٢ / أكل اللحم عند أهل خراسان

يقول الجاحظ: (وزعموا أنهم ربما تراقوها وتزاملوا، فتناهدوا وتلازموا في شراء اللحم فإذا اشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ وأخذ كل إنسان منهم نصيبه فشكه بخوصة أو بخيط، ثم أرسله في خل القدر والتوابل، فإذا طبخوه تناول كل إنسان خطيه، وقد علمه بعلامة ثم اقتسموا المرق، ثم لا يزال أحدهم يسل من الخليط القطعة بعد القطعة حتى يبقى الجبل لاشيء فيه، ثم يجمعون خيوطهم، فإن أعادوا الملازمة، أعادوا تلك الخيوط، لأنها قد تشربت الدسم، فقد روينا، وليس

تناهدهم من طريق الرغبة في المشاركة، ولكن لأنّ بضعة كلّ واحد منهم لا تبلغ مقدار الذي يتحمل أن يطبخ وحده، ولأنّ المؤونة تخفّ أيضاً، والخطب والخل والثوم والتوابل .....<sup>(٨٢)</sup>. يتضح لنا من خلال مجموعة الصور المارة الذكر أنّ الجاحظ لم يستطع التخلّي عن ذاتيّته وهو يرسم صورة الآخر فرداً كان أم جماعة، وإنّ هذه الصور هي إفراز لوعي الرجل الثقافي هذا الوعي الذي (يستدعي توافر مرجعية محددة القواعد واضحة الأركان وهي عبارة عن منظومة متكاملة من القيم الجمالية والدينية والمعرفية)<sup>(٨٣)</sup>، فهي إذن صور لم تأتّ عفو الخاطر ولم ترسم بعيداً عن تحطيم وتصميم سابقين، بل هي ثمرة من ثمرات ذلك الوعي الذي دججه الجاحظ لا بمجرد مشاهداته العينية فحسب وإنما عبر ما هو مروي أو متخيّل ناهيك عن كون المشاهدات ذاتها قد شرّبها جانب كبير من الخيال أيضاً.

والجاحظ لم ير الآخر - كما بان من الصور المعروضة - فرداً يستحقّ المدح، كما لم ير الجماعة التي انضوى تحتها ذلك الفرد قواماً يستحقّون تخليل الذكر من خلال الإشادة ببنائهم وإعطائهم، فهم قوم قد تجرّدوا من قيمة إكرام الضيف، هذه القيمة التي تدلّ على نجاح الإنسان في علاقات التبادل مع الآخرين وتؤكّد مبدأ التضامن الاجتماعي، مثلما تدلّ على الرغبة في إعلاء قيمة الذات وذيوع صيتها صاحبها وقد بدا لنا أفراد ذلك المجتمع - بتصرّف الجاحظ - بخلاء أشحاء يبعثون على الاستغراب والاستهجان، وبذا سلوكهم مُشينًا بسبب هذه الخلطة التي وصفتهم... فالخراساني يطلق زوجته لأمر تافه، والوالى ببلادهم يخالف المألوف لأنّه غير معنىًّ بعلو شأنه أو بذيوع صيتها، والمرزوقي إن تصدق أو زكى فليس حبّاً بذلك، وإنما طلباً لزيادة ماله! وهو لا يلبس النعل أيام النوى والنبق اليابس خوفاً على نعليه لا على قدميه.

وصورتهم - كجماعة - تجسّدت على أنّهم عميّان البصيرة يدخلون في (سفرهم) على بعضهم حتى بضوء المصباح، وهم قوم يثيرون السخرية والاستهجان عندما يلبسون الخفاف، فتجسّم صورة لهم كاريكاتوريّة وهم يمشون على أعقاب أقدامهم ثلاثة أشهر، وعلى صدور أقدامهم ثلاثة مثلها!

والصورة الأنكى لهم في طريقة طعامهم التي بدت لنا مضحكّة مبكية، وكأنّي بالجاحظ يقرّن مستهزئاً: أين هؤلاء القوم من العرب الذين تتسع قدرورهم للناقة العظيمة التي يبدو شحم سمامها للطاعم المفروم من أعلى القدر<sup>(٨٤)</sup>، وإذا دعوا الناس للأكل فلا يخصّون قوماً دون آخرين وإنما هي دعوة على طريقة الشاعر طرفة بن العبد حيث قال:

**نحن في المشاة ندعو الجفلي لا ترى الأدب فينا ينتقر<sup>(٨٥)</sup>**

والمتأمل في نصوص الجاحظ الخاصة بطريقة الطعام وأدابه عند الآخر يدرك أنّ الرجل قد اعتمد هذه الطريقة وسيلة للفصل بين الذات والآخر، فالذات كما يؤكّد علماء الاجتماع : (الوجود لها إلا في داخل جماعة يرتكز تضامنها إلى الحرمة الدينية والاجتماعية، وجميع الأفعال التي تؤدي بصورة مشتركة كالمأكل على وجه الخصوص، تتسم بطابع حرمي وطقسي)، وعلى هذا الأساس لا يحقّ للإنسان الذي لا ينتمي إلى الجماعة الأسرية أن يشارك في أيّ عمل من الأعمال الموقوفة على أعضائه<sup>(٨٦)</sup>.

ومadam الأحساس بالذات والتفكير بالآنا قد تما عند الجاحظ في ضوء سلم محكم من القيم العرقية فمن الطبيعي أن نجد الآخر قد ظهر بصورة المختلف، وقد توجّج الجاحظ نظرته تلك من خلال نص صغير أوجزه بقوله: (وقال ثامة: لم أر الدِّيك في بلدة إلاّ وهو لاقط الحبَّة بمنقاره، ثم يلفظها قَدَام الدجاجة إلاّ دِيكة مرو فإني رأيت دِيكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب، قال: فعلمت أنّ بخلهم شيء في جميع البلاد وفي جوهر الماء فمن ثمّ عمّ جميع حيوانهم، يعني أنّ البخل طبع فيهم وفي أعراقهم وطبيعتهم)<sup>(٨٧)</sup>، فالجاحظ يقلب الحقائق مرّة أخرى ليؤكّد تصوّراته الذاتية، فالديك يضرب فيه المثل بالجود (أسخى من لاقطة) لكنه في بلدت(هم) غلبه تطّبعه على طبعه! وتتأكد تلك الذاتية كثيراً حين تتأمّل الجمل الثلاث الأخيرة من الاستشهاد، فالجملة الأولى تشير إلى البخل في الأرض وتعبر الثانية عن بخل حيوانهم، ودلت الثالثة على بخل ناسهم، وبمعادلة بسيطة نصل إلى ما يريد الجاحظ:

أرض بخيلة + حيوان بخيلة + ناس بخلاء = مجتمعاً بخيلاً<sup>(٨٨)</sup>

وأخيراً وبعد هذا العرض لتصورات الجاحظ عن الآخر يمكننا الإجابة ببعض من الاطمئنان عن التساؤل الذي كان حافزاً لتحريك الرغبة لهذا البحث، فنرى وفقاً لما عرضناه أنّ لحظة اصطدام المجتمع العربي بالأخر الفارسي كانت سبباً مباشرًا من أسباب ظهور كتاب بخلاء الجاحظ الذي ترك أثراً كبيراً في المنظومة الثقافية العربية وهي تمثل صورة الآخر، لا على مستوى الأدب و Moriّاته، وإنما على مستويات أخرى كالتأريخ والجغرافية - مثلاً - فالطبراني حينما يحاول تصنيف طبائع الأمم يستند إلى الصورة التي رسّخ أبعادها الجاحظ عن الفرس، فيقول: (إنّ تسعة أعشار الحسد للعرب، وتسعة أعشار الكبار للروم، وتسعه أعشار الحفظ للترك، وتسعه أغشار الشبق للهنود، وتسعه أعشار السخاء للسودان، وتسعه أعشار البخل للفرس...)<sup>(٨٩)</sup>، جاعلاً العذر الباقي من كلّ خلق لسائر الناس في الدنيا، وحينما يرحب المقدسي في وصف أخلاق أهل البلدان التي طاف بها ليحدد تخوم أقاليمها؛ فإنه لا يستطيع انفكاكاً عن الجاحظ وأثره، فيقول: (قال عبد الرحمن ابن أخي الأصممي: دخلت على الجاحظ، فقلت: أفندي في البلدان بفائدة، قال: نعم، الأمصار عشرة: المروءة ببغداد والفصاحة بالكوفة والصنعة بالبصرة والتجارة بمصر والغدر بالري والجفاء بنيسابور والبخل بمرزو والحرف بلخ والحرفة بسمرقند، وقد صدق لعمري)<sup>(٩٠)</sup>! وقد لا نبالغ إذا قلنا إنّ ذاكرة الكثيرين منا مازالت تحتفظ ببعض من خزین تصورات الجاحظ حتى يومنا هذا ! وما نأمله إلا يعاد شحن ذلك الخزين - كأيديولوجياً - تعيد توجيه التاريخ بما يغذّي الكراهية بين الشعوب من جديد.

## الخاتمة

- حاول البحث استقصاء صورة (الأخر) الفارسي في أدب الجاحظ متخدًا أنموذج كتاب البخلاء وسيلةً للوصول إلى ملامح تلك الصورة منتهاً إلى النتائج الآتية:
- إنّ حاجة الجاحظ إلى تثبيت أساس الاختلاف والفوارق الاجتماعية والعرقية دعته إلى توزيع الطبائع والسلوك والأخلاق بين العنصرين العربي والفارسي فكانت السمات الموجبة كالفصاحة والكرم والمروءة من حظ العرب، أما الصفات السالبة فمن نصيب الفرس، وهذا توزيع يعبر عن موقف حياتي وثقافي من الجماعات الأخرى، كما إنّه توزيع يُميّز اللثام عن رغبة الجاحظ في محاولة إعادة كفة الموازين التي قلبتها الحركة الشعوبية التي نادت بأفضلية الفرس والموالي على العرب أصحاب الحضارة الغالبة آنذاك.
- إنّ تمجيد العرب والقدح بالفرس هو اللازمـة التي تتخالـل كتبـ الجاحظ وقد برزـت في كتابـ البخلاء لأنـه أقربـها إلى الإبداعـ الأدبي حيث يتمـرأـ الشعورـ بالغيرـية وـتتجـلى بـعـد صـورـةـ الآخرـ، وقد انسـحبـتـ تـبعـاتـ هـذـهـ الـلـازـمـةـ عـلـىـ أـسـلـوبـ الجـاحـظـ فـطـفـتـ عـبـاراتـ وـأـسـلـيبـ عـدـيدـ تـعـبـرـ عـنـ تـجـربـةـ نـفـسـيـةـ خـاصـةـ أـكـدـتـ أـنـ أـدـبـ الـبـصـرـةـ الـأـوـلـ كـانـ يـرـسـمـ صـورـ لـلـآـخـرـ حـدـدـ مـلـامـحـهاـ وـعـيـ كاملـ بـخـلـفـيـةـ الـصـرـاعـ وـالـاخـلـافـ وـالـرـغـبـةـ فـيـ إـقـصـاءـ الـآـخـرـ.
- ظـلتـ هـذـهـ صـورـةـ الـجـاحـظـ مـلـامـحـهاـ مـبـكـراـ عـالـقـةـ فـيـ الـذـهـنـيـةـ الـعـرـبـيـةـ عـبـرـ الـعـصـورـ مـتـجاـوزـةـ حـقـلـ الـآـدـابـ إـلـىـ حـقـولـ مـعـرـفـيـةـ وـإـنـسـانـيـةـ آـخـرـ.

## هوامش البحث

- (١) معجم الأفكار والأعلام، ص ١٢.
- (٢) المعجم التربوي وعلم النفس، ص ١٢.
- (٣) ينظر: فتحي أبو العينين - صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي العربي ضمن كتاب صورة الآخر، العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص ٨١٢.
- (٤) ينظر: المصدر نفسه، ص ٨١٣.
- (٥) ينظر: الرحلة والغيرية، ص ٧.
- (٦) الغرب المتخيّل: صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي في العصر الوسيط، ص ١٧.
- (٧) دليل الناقد الأدبي، ص ٢٣.
- (٨) الآخر في القرآن، ص ٣٨.

\* يقول الحديث النبوى الشريف: (الخلق كلهم عباد الله فأحبّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله)، وقد ورد الحديث

- تحت الرقم ٧٤٤٦ في شعب الإيمان للبيهقي: ج ٦، ص ٤٣.  
 (٩) ينظر: مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، ص ٢١.  
 (١٠) الجوانب السايكلوجية في أدب الجاحظ، ص ٨.  
 (١١) المقدمة في النثر العربي، ص ١٠٢.  
 (١٢) اللوقوف على مبادئ وآفكار هذه الفرقية ينظر: الملل والنحل للشهرستاني، ص ٨٦ وما بعدها  
 \* الشعوبية: كلمة استعملت على ما يبدو في معنى القبائل غير العربية (الأعاجم) تمييزاً لها عن كلمة (قبائل) التي كانت تطلق على القبائل العربية فقط، وقد أطلقت الشعوبية على ذلك المذهب الذي لا يعترف بتفوّق العرب على الأعاجم، أو الذي كان يرفع منزلة الأعاجم، أو الذي يزري أو يحط من قدر العرب، وكان يسمى المنتمي لهذا المذهب شعوبياً ينظر: معجم المصطلحات في اللغة والأدب، ص ٢١٨. أما رأي الجاحظ عن الشعوبية فيوجزه قوله في البيان والتبيين ج ٢، ص ٤٠ (اعلم أنك لم تر قوماً أشقي من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكاً لعرضه ولا أطول نصباً ولا أقل غنماً، من أهل هذه النحلة....).
- (١٣) (البيان والتبيين، ج ٣ ص ٢٨)  
 (١٤) المصدر نفسه، ص ٢٩١.  
 (١٥) ينظر: نفسه، ج ١ ص ٦٩.  
 (١٦) الحيوان، ج ١ ص ٢٨٧.  
 (١٧) المصدر نفسه، ص ٢٩.  
 (١٨) رسائل الجاحظ، ج ٣ ص ١٩٦.  
 (١٩) المصدر نفسه، ص ١٣.  
 (٢٠) ينظر: صورة العرب لدى الأتراك، ص ٣٨.  
 (٢١) الكتابة والتناسخ، ص ٦٩.  
 (٢٢) قارن -مثلاً- بين بخلاء الجاحظ وبخلاء الخطيب البغدادي (ت ٦٣٤ هجري) من ناحية سند الرواية المنشورة عن شخصيات البخلاء حيث تحتشد قصص البخلاء عند الخطيب البغدادي بالسند الروائي بينما يندر السند الروائي أو يكاد ينعدم في كتاب بخلاء الجاحظ وهذا يؤكّد أن الجاحظ تحكم فيه غريزة الأديب لا غريزة المؤرخ..
- (٢٣) (البخلاء، ص ٢٤)  
 (٢٤) المصدر نفسه، ص ٢٠.  
 (٢٥) اعتمدنا نسخة البخلاء -تأليف عمرو بن بحر الجاحظ- بتحقيق الدكتور محمد الأسكندراني لأن هذا المحقق اعتمد وراجع وأفاد من النسخ المحفوظة قبل نسخته هذه كنسخة المستشرقة (فان فلوتن) ونسخة الأديب (طه الحاجري) ونسخة (أحمد عوامري وعلى الجارم) ولذا نرى هذه النسخة المعتمدة أكثر النسخ المذكورة سعة وتكاملًا.  
 (٢٦) للاستزادة بهذا الخصوص ينظر - على سبيل المثال - صورة العربي في الأدب الفارسي الحديث، ص ١٦ وما بعدها.
- (٢٧) رسائل الجاحظ، ج ٣ ص ٣٠٨.  
 (٢٨) (البخلاء، ص ٢٥ - ٢٦).  
 (٢٩) المطابقة والاختلاف، ص ١٦٠.  
 (٣٠) صورة الآخر، العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص ٣٨.  
 (٣١) ينظر: الأعلام للزركلي، ج ٣ ص ١٤٣.  
 (٣٢) ينظر: صورة بخل الجاحظ الفنية، ص ١٢٢.  
 (٣٣) ينظر : (البخلاء، ص ٣٣)  
 (٣٤) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٤.  
 (٣٥) ينظر المصدر نفسه والصفحة  
 (٣٦) ينظر نفسه، ص ٣٥.  
 (٣٧) ينظر نفسه، ص ٣٧.  
 (٣٨) ينظر: نفسه، ص ٣٨.  
 (٣٩) ينظر: نفسه، ص ٣٩.  
 (٤٠) ينظر: الجوانب السايكلوجية في أدب الجاحظ، ص ٢٩ وما بعدها.  
 (٤١) ينظر الأعلام للزركلي، ج ٨ ص ١٩٥.  
 (٤٢) (فيلسوفان رائدان، الكندي والفارابي، ص ١٧)  
 (٤٣) (البخلاء، ص ٤١)  
 (٤٤) المصدر نفسه، ص ٤٠٤.  
 (٤٥) ينظر: نفسه، ص ١٠٣.  
 (٤٦) ينظر: نفسه، ص ١٠٣ - ١٠٤.  
 (٤٧) ينظر: نفسه، ص ١١٢ - ١٠٥.  
 (٤٨) المطابقة والاختلاف، ص ٣٢١.  
 (٤٩) (البخلاء، ص ٤)  
 (٥٠) معاني التحوّل، ص ١٠٥.  
 (٥١) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٠٦ - ١٠٥.  
 (٥٢) (البخلاء، ص ٤٥)  
 (٥٣) صورة بخل الجاحظ الفنية، ص ٦٠.  
 (٥٤) (البخلاء، ص ٦٧)  
 (٥٥) ينظر: الجاحظ والحاضرة العباسية، ص ١٨١.  
 (٥٦) المصدر نفسه، ص ١٨٢)

- \* درهم بغلی، درهم ینسب الی (رأس البغل) الذي سک الدرام
- \* الكلمات الواردة في النص ابتداء من كاجار إلى اسطبل هي كلمات دالة على مهنة المسؤول والكذبة وأغلب هذه الكلمات فارسية الأصل مما يدل على ارتباط ظاهرة المسؤول والكذبة والاحتيال بالمجتمع الفارسي في تصور الجاحظ -على الأقل-. وقد أتى على تفسير كل كلمة من هذه الكلمات في الصفحات ٧٤، ٧٥، ٧٦
- \* الزکوري هو خنز الصدقة
- (٦٩) البخلاء، ص ٦٩
- (٥٨) نفسه
- (٥٩) نفسه، ص ٧١
- (٦٠) (نقلًا عن: دراسات في الاحتجاج، ص ٦٢)
- (٦١) البخلاء، ص ٧١، ٧٢
- (٦٢) نفسه، ص ٧١
- (٦٣) موسوعة أدب المحتالين، ص ١١٤
- (٦٤) (ينظر: بديع الزمان الهمданی، ص ٣٥)
- (٦٥) (مقامات بديع الزمان الهمدانی، ص ٢٤)
- (٦٦) (مقامات الحريري، ص ٥٣٣ - ٥٣٤)
- (٦٧) للاستزادة بهذا الخصوص ينظر على سبيل المثال: موسوعة أدب المحتالين ص ١٥١ وما بعدها
- (٦٨) (ينظر: كيف يرى المتصرون ما صوره الأعمى في رسالة الغفران، علي عبيد، مجلة دراسات مغاربية، ص ٩)
- (٦٩) (ينظر: علم النفس الاجتماعي، ص ٧٧)
- (٧٠) (ينظر: البخلاء، ص ٤٧)
- (٧١) نفسه ص ٥٠-٤٩
- (٧٢) نفسه ص ٥١
- (٧٣) نفسه ص ٥٢
- (٧٤) نفسه ص ٤٢
- (٧٥) نفسه ص ٥٢-٥١
- (٧٦) تعدد الأديان وأنظمة الحكم، ص ٤٣
- (٧٧) (٧٧) البخلاء، ص ٤١
- (٧٨) نفسه، ص ٤٧
- (٧٩) نفسه، ص ٤٩-٤٨
- (٨٠) نفسه، ص ٤٢
- (٨١) نفسه
- (٨٢) نفسه، ص ٤٦
- (٨٣) أوربا في مرأة الرحلة، ص ١٢
- (٨٤) (ينظر: البخلاء، ص ٢٦٤ وما بعدها)
- (٨٥) (ينظر: المصدر نفسه، ص ٢٥٠)
- (٨٦) تعدد الأديان وأنظمة الحكم، ص ٤٣
- (٨٧) (٨٧) البخلاء، ص ٤١
- (٨٨) (ينظر: صورة بخيل الجاحظ، ص ٦٤)
- (٨٩) تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ص ٦٠-٥٩
- (٩٠) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٣

### قائمة المصادر والمراجع

- الآخر في القرآن، غالب حسن الشابندر، مركز دراسات فلسفه الدين، بغداد، ٢٠٠٥
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تأليف شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي، علق عليه ووضع حواشيه، محمد أمين الصاوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ط ١، ٢٠٠٤
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ١٦، ٢٠٠٥
- أوربا في مرأة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، سعيد بنسعيد العلوى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط المغرب، ط ١، ١٩٩٥
- البخلاء، أبو عثمان بحر بن عمرو الجاحظ، تحقيق محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت ٢٠٠٦
- البخلاء الخطيب البغدادي، تحقيق، د.أحمد مطلوب، د.خديجة الحديثي، أحمد ناجي القيسى، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤
- البيان والتبيين، أبو عثمان بحر بن عمرو الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٨
- بديع الزمان الهمدانی، مارون عبود: سلسلة نوابغ الفكر العربي(٩) دار المعارف بصر، ١٩٦٣
- تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جریر الطبری، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهیم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ج ٤
- تعدد الأديان وأنظمة الحكم، دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة، دار النهار، بيروت، ط ٢، ١٩٩٢
- الجاحظ والحاضرة العباسية، د.وديعة طه نجم، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٥
- الجوانب السمايكولوجية في أدب الجاحظ، د.نوري جعفر، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١

الحيوان، أبو عثمان بحر بن عمرو الجاحظ، تحقيق إبراهيم شمس الدين، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٣

دراسات في الحجاج، فراعة لنصوص معاصرة من الأدب العربي القديم، د.سامية الدرديي الحسيني، عالم الكتب الحديثة، عمان، ط١، ٢٠٠٩

دليل الناقد الأدبي، تأليف د.ميجان الرويلي، د.سعد البازغى، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٢  
الرحلة والغيرية، تنسيق، عبد الرحيم بنحادة-خالد سكراوى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٨  
رسائل الجاحظ، أبو عثمان بحر بن عمرو الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجبل، بيروت، ١٩٩١  
شعب الإيمان للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البهقى، تحقيق، أبي هاجر محمد السعيد اليسيني ز غلول، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ٢٠٠١ ج٦

صورة الأترالك لدى العرب، د.إبراهيم الداقوقى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠١  
صورة بخليل الجاحظ الفنية من خلال خصائص الأسلوب في كتاب البخلاء، أحمد بن محمد بن إمبيريك، مشروع النشر المشترك، دار الشؤون الثقافية، بغداد، الدار التونسية، د.ب.  
صورة العرب في الأدب الفارسي، جويا بلندل سعد، ترجمة صخر الحاج حسين، شركة قدس للنشر والتوزيع، بيروت، د.ب.

صورة العرب لدى الأترالك، د.إبراهيم الداقوقى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٨٨  
صورة العربي ناظراً ومنظوراً إليه، تحرير الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨  
علم النفس الاجتماعي، د. محمد عبد الهادى، دار العلوم العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥  
الغرب المتخيل، صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي في العصر الوسيط، محمد نور الدين أغاية، منشورات المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠١  
فليسوفان راندان، الكندى والفارابى، جعفر الياسين، دار الأنجلوس بيروت، ١٩٨١  
الكتابة والتناسخ، مفهوم المؤلف في الثقافة العربية، عبدالفتاح كيليطو، ترجمة عبد السلام بنعبد العالى، دار توپقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ٢٠٠٨  
المطابقة والاختلاف، بحث في نقد المركزيات الثقافية، د.عبد إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٤ ٢٠٠٤

مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، ميشال عاصي، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨١  
المقدمة في النثر العربي، على حب الله، دار الهادى، بيروت، ط١، ٢٠٠١  
معاني النحو تأليف د.فضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان،الأردن، ط٢، ٢٠٠٣ ج١  
معجم الأفكار والأعلام، هنستتون، ترجمة خليل راشد الجوشى، دار الفارابى، بيروت، ط١، ٢٠٠٣  
المعجم التربوى وعلم النفس، د.نايف القىسى، دار أسامة للنشر، عمان ط١، ٢٠٠٧  
معجم المصطلحات في اللغة والأدب، مجدى وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤  
الملل والنحل لأبى محمد الفتح بن عبد الكريم الشهري، قدم له د.صلاح الدين الهوارى، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٨٨  
موسوعة أدب المحتالين، د.عبد الهادى حرب، دار التكوين، دمشق ٢٠٠٠  
مجلة دراسات مغاربية، العدد الحادى عشر (٢٠٠٠)

## ملحق

### قصة العراقي مع المرزوzi

ومن أتعجب أهل مرو نا سمعناه من مشيختنا على وجه الدهر وذالك أنَّ رجلاً من أهل مرو كان لا يزال يحج ويتجَّر، وينزل على رجل من أهل العراق، فيكرمه ويكتبه مؤونته، ثمَّ كان كثيراً ما كان يقول لذلك العراقي : (ليت أتى رأيتكم بعرو، حتى أكافئك، لقديم إحسانك، وما تجدد لي من البر في كل مرة، فاما ها هنا فقد أغناك الله عنِّي ) قال : فعرضت لذلك العراقي، بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية، فكان مما هوَّن عليه مكافحة السفر ووحشة الاعتراب، مكان المرزوzi هناك : فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره، وفي عمامته وقلنسوته وكستانه، ليحطِّر رحله عنده، كما يصنع الرجل بثنته، وموضع أنسه، فلما وجده قاعداً في أصحابه، أكبَّ عليه وعائقه، فلم يره أثبته، ولا سأل عنه سؤال من رأه فقط، فالعربي في نفسه : (لعلَّه أن يكون إنما أتى من قبل العمامة) ؛ فنزَّعها وانتسب وجدد مساعلته، أنكر فقال : (لعلَّه أن يكون إنكاره إيه، لمكان القتاع) فرمى بقتاعه وابتداً مساعلته، فوجده أشدَّ ما كان له إنكاراً فقال : (لعلَّه لته، فوجده أشدَّ ما كان له إنكاراً فقال : (لعلَّه إنما أتى من قبل القنسوة)؛ وعلم المرزوzi إنَّه لام يبق شيء يتعلَّق به المتغافل والمتجاهل، فقال :

( لو خرجت من جلدك لم أعرفك ) وترجمة هذا الكلام بالفارسية ( أکر از بوسٽ یارون بیانی  
نشنا ستم )